المقاومة الأخلاقية
في أدَبِيَّات أسْرَةَ "أهل آدب"

تم نشر هذا الكتاب في إطار سلسلة
- التراث الكنتي البوسيفي -
(أدبيات أهل آدب) - (2)

- **الكتاب:**
المقاومة الأخلاقية
في أدبيات أسرة "أهل آدب"
- **المؤلف:**
أدي ولد آدب
- **عدد الصفحات:** 112 صفحة
- **مقاس:** 16×24 سنتم
- **الطبعة الأولى:** مراكش 1442هـ/ 2020م
- **الكلمات المفاتيح:** التراث الكنتي، أدبيات أهل آدب، تراجم، نصوص شعرية
- **الحقل المعرفي:** الآداب/ / الأدب الموريتاني/ تراجم
- **ديوي:** 800

رقم الإيداع القانوني: 2020 MO 4423
الرقم الدولي: 1 - 85 - 618 - 9954 - 978

جميع الحقوق محفوظة © 2020- المغرب

الناشر:

مؤسسة آفاق للدراسات والنشر والاتصال،
4/ 483 الوحدة الرابعة، الداوديات - مراكش - المغرب
(212) 05 24 30 73 59
www.afaqedit.com
Email: afaqedit@gmail.com

تصميم الغلاف: مؤسسة آفاق - مراكش - المغرب
الطباعة: المطبعة والوراقة الوطنية - مراكش - المغرب

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال.

سلسلة التراث الكنتي البوسيفي

(أدبيات أهل آدب)

(2)

المقاومة الأخلاقية

في أدَبِيَّات أسْرَة "أهل آدب"

أدي ولد آدب

إهداء

إلى أهل آدب

شهداء "المقاومة الأخلاقية"

أولئـك قـوْمٌ كلَّهـم- فِي نَدِيِّـه- أمـــيرٌ، وفي مِحْرَابِـــه مُتَعَبِّـــدُ

همُ مَعْدنُ العِزِّ الصريحِ، إذا انْتَمَـوْا وبيْـتُ المَعَـالِي، والمَعـانِي، المُصَـمَّدُ

لِبَانُ التُّقَى، والمكْرماتِ قد ارْضِعُوا وسـادوا جميـعَ العـالمينَ، وسُـوِّدُوا

ومـــا مِـــنْهمُ إلا جَـــوَادٌ مُـــبَرِّزٌ لدى حَلَبَاتِ المَجْـدِ، نَـدْبٌ، مُمَجَّـدُ

فهمْ كنُجوم الليل؛ ضوْءً، وخِلْقَـةً إذا سَـــيِّدٌ ولَّى يُخَلَّـــفُ سَـــيِّدُ

اقتباسا من الشاعر العلوي:

محمد عبد الله بن عبيد الرحمن

حين رثى الشيخ أحمد بن آدب 1944

الفهرست

إهداء 7

أولا: مدخل تأسيسي 11

ثانيا: التَّكنْتِي والتَّفَتِّي 17

ثالثا: أولاد بوسيف: خصوص الخصوص 21

رابعا: أگان: "ربْع عَزَّة البوسيفيين، وعزتهم 25

1- أحمد بن المختار بن أمحمد بن الطالب أعمر 26

2- الشاعر: أحمد بوه بن محمد بن مُحمد بن الطالب أعمر 28

3- أحمد بن أمحمد اشنان 29

4- مُحمد "ويقي" ابن سيد المين بن أمحمد بن الطالب أعمر ... 30

خامسا: وطن البوسيفيين: منطقة الجذب بين حضرتين 33

سادسا: مشيخة أهل آدب: جدل الوهب والكسب 49

سابعا: أهل آدب: جدلية النسب والأدب 61

ثامنا: تجليات المقاومة الأخلاقية 71

أ- مقاومة الذات: صراع الإنسان والشيطان 71

ب- جدل الغضب والأدب 78

ج- البطولة الداخلية والخارجية 85

د- مقاومة الجهل والجبن: جدل الكتاب والركاب 87

ه- مقاومة الشح: قتل البخل بسيف البذل 93

و- مقاومة زهرة الدنيا- جدل السلوىٰ والتقوىٰ 99

ز- مُقاوَمَة الدَّجَل: دفاع الابتداع 102

تاسعا: الخاتمة 105

أولا

مدخل تأسيسي

"المُقاوَمَة" مُتلازمةٌ فطْريةٌ لكلِّ كائنٍ حيٍّ وَجَدَ نفْسَه في خِضَمِّ هذه الدنيا؛ حيث يُولدُ مُسْتشْعِرا ضعْفَه الوُجوديّ، ونِسْبيةَ الحياة من حوْلِه، واسْتحالةَ الخُلودِ لغيْر الخالق، فيبدأ في مُواجَهة عواملِ الفَنَاءِ الحتْمِيّ المُتَرَبِّصَةِ به من **الداخل والخارج**، لتأسيسِ **خُلودِه النِّسْبِيّ**، ﴿ لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ ﴾[1]؛ ومنْ هُنا تأخذُ مُقاوَمَتُه طابعا مُزْدَوجا، بيْنَ **الذاتِيِّ** الداخليِّ، و**الغيْرِيّ** الخارجيّ، لا سيما بالنسبة للإنسان، الذي خُلِقَ فِي أحْسَنِ تَقْوِيمٍ مُتَنازَعا بيْن قبْضةٍ من طِينٍ، تشدُّه إلى الأسْفلِ، تُخْلِدُ به إلى الأرض، وبيْنَ نفْحةٍ من روحٍ، تسْمُو به إلى مَصْدره العُلْوِيّ، ليَكُونَ تردُّدُه بيْن هذيْن القطبيْن هو مجَالَ اخْتبارِه وابْتلائه، في جَدَارَتِه بالخِلَافةِ في الأرْض: هلْ ينجحُ.. أمْ يفشلُ؟ هل يفضُلُ.. أمْ يرذلُ؟ هل يسْمو.. أمْ يسفُلُ؟.

ومن هنا تتأطَّرُ صِفَةُ **"الأخْلاقية"**، التي وَسَمْتُ بها المفْهومَ الشاملَ لـ«**المُقاوَمَة**»، واخْترتُها زاويةً للمُقارَبَة، حيث يبْدو تكريسُ هذا المَفهوم - **لمُقاوَمَة العَدُوِّ الخارجيّ**- اخْتزالا وتسْطيحا، دَرَجَ عليْه الناسُ، حتَّى أصْبَحَ مُبْتَذَلًا، لكثْرَةِ ما خاضتْ في لجَّتِه الأقلامُ.. وأنا - بطبْعِي- أكرهُ مَطروقاتِ المَواضيعِ، ومَألوفاتِ المُقارَبَات.. لأنَّ اتِّبَاعَها مُنَافٍ للإبداع، إذْ ليس إلا تحصيلا لحاصل، وتكْرارا بدُون طائل.. فبَدَلا من رصْدِ وقائعِ وتَجَلِّياتِ مُقاومَة العَدُوِّ الخارجيّ، بالمُتاحِ منَ

[1]- **قرآن كريم**، سورة الشعراء، الآية: 84.

الأسْلِحَةِ العاديةِ.. ينْبَغِي أنْ نُسلِّطَ الضوْءَ على الوجْه الآخَرِ لهذه العُمْلَةِ، فنَتَرَصَّد تجَلِّيات **البُعْد الداخليّ «للمُقاوَمَة الأخْلاقية»**، التي ينْبغي أنْ تكونَ ذاتيةً في البِداية، لتنْطلقَ- بنجاحٍ- مـنَ الأنَـا إلى الآخَـر.. بأسْـلحةٍ مُغـايِرَةٍ، وبأهْـدافٍ مُخْتَلِفـةٍ.. اسْتلهامًا للتوْجِيهِ النَّبَوِيِّ بنقْلِ المَعْرَكَةِ -مَبْدئِيا- إلى الداخل.. داخل أسْوار الذات الإنسانية؛ فـ«**أعْدَى عَدُوِّكَ نَفْسُكَ** التِي بَيْنَ جَنْبَيْكَ»[1]، وعِنْدَما رَأى الناسَ - مـنْ حوْله- مُنْبَهِرينَ بالقُوَّةِ البَدنِيةِ لرجُلٍ عمْلاقٍ؛ لا يَقومُ له أحَـدٌ إلا صَرَعَـهُ، شـاءَ -عليْه الصلاةُ والسلامُ- أنْ يَصْرِفَ ذِهْنِيةَ الجُمْهورِ عن تمْجيدِ **القوةِ البَدَنِيةِ** المادِّيةِ المُوَجَّهَة إلى الآخر، نحْوَ **القـوة الرُّوحيـةِ** المُوَجَّهَـة إلى الـذات.. فزَلْـزَلَ قنَاعـاتِهم السائدةَ، نازعًا معْنَى القوة العَضَلِيةِ الخارقة مـن كلمتـيْ **"الشَّـدِيد= الصُّـرَعَة"**، اللتيْن عبَّأتْهُما بها مُواضَعاتُ اللغة العربية الجاهِليـة، ليشْـحَنَهُما -بعْـدَ تفْـريغِهُما- بمَعْنَى القوة الروحية الداخلية، ففاجَأهم بقوْلِه النافِي: «ليس الشَّدِيدُ بِالصُّـرَعَةِ»، وقبْلَ أنْ يفيقوا من هوْل الصدْمةِ اللغوية، وكلُّهم يتساءَلُ -في داخِله- مُسْتعْرِضا مُعْجَمَه العربيّ: بَادَرَهُمْ باسْتِدرَاكِ الحُكْمِ المُذْهِلِ؛ مُكَمِّلا حديثَه: «لكـن **الشـديدُ مَنْ يَمْلِكُ نَفْسَهُ عنْدَ الغَضَب**»[2]، مُؤسِّسا بـذلك **لمَفْهـومٍ روحـيٍّ للقـوة**، في إطـارِ **ثَوْرَتِه الأخْلاقيةِ** الجديدةِ علَى المَفاهيم الخاطئة، حيث ينطلقُ "الجِهَادُ الأكْبَرُ"[3] مـن مُحَارَبَةِ نَوَازِعِ الغرائز الحَيَوَانِية في النفْس الإنسانية، لتتخَفَّفَ من ثقل **كُتْلَـةِ الطـينِ** الجَسَدِيةِ المُثَبِّطَةِ، حتّى ترْتقِي فِي **"مَدَارِج السالِكينَ"**، إلى **"مَرَاقِي السُّـعُودِ"**، عـبْرَ مَحَطَّاتِ الأشْوَاقِ الرُّوحِية العُلْيَا، وهذا ما فهِمَه أبْطال **"المُقاوَمَـة الأخْلاقيـة"** مـن

---

[1]- الخرائطي: **اعتلال القلوب**، تح: حمدي الدمرداش، الناشر: نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة، الرياض، ط2، 2000م، ص 26.

[2]- **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، ج12، تح: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، ط1، 2001م، ص 153.

[3]- أبو بكر البيهقي: **كتاب الزهد الكبير**، تح: عامر أحمد حيدر، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ط3، 1996م، ص 165.

المُتَصَـوِّفِينَ الصـالحينَ، في عمَلِهـمْ لتصْـفِية الأرواح؛ فعـبَّرُوا عنْـه بمصـطلحيِ **"التخْلِيةِ"** من الرَّذائِلِ، و**"التَّحْلِيةِ"** بالفضائل.[1]

ونظرا لعلاقة اسم **"أهل آدب"**-ولو جرسيا- **بالأدبين: أدب النفس، وأدب الدرس**، أحببت أن أحفر قليلا في العلاقة بين البعد الروحي/ **الأخلاقي** لهذه **العائلة**، والشذرات الباقية من **أدبياتها**، لتأسيس جسر واصل بين الاسم والمسمى، وبين الروح والبوْح، وبين الشخوص والنصوص، لا سيما أن هذه المسؤولية، قد تَعَيَّنَتْ عليَّ شخْصيا، بشكْل لم يَعُدْ قابلا للتغاضي، ولا للتسْويف، نظرا للتقدم في العُمر، وتَخَطُّفِ الموت لأشقائي الذين كان يمكن أنْ يُساهِموا معي في هذا المشروع، الذي كنا جميعا نسْعى - منذ نُعُومة أظافرنا- لجمْع شَتاتِه، وإنْقاذ بعْض جُذاذاته، وهكذا وجدتُ نفْسي دارسا، وموضوعا في الوقت نفسه، عالقا في قبضة حَرَجٍ مُزْدَوج، حَرَج اجتماعي؛ لأني أكتبُ عن أسْرتي، وحَرَجٍ أكاديمي لأني أكتبُ عن موضوع لا تُوجَدُ له مَراجِعُ ومَصادِرُ، غير ما بِـأيدِينا من بقايا مخطوطات ووثائق عائلية خاصة، اسْتَنْقَذْنَاها من يَدِ الضياع، بَعْدما زاحَمْنا عليْها الأرضَةَ، والفئْرانَ، وغيْرَهما من القوَارِض، ونَقَّبْنا عنْها تحْت رُكام الغُبار، وأنْسِجَةِ العَناكِب، وداخِلَ مُحْتوياتِ أشْباه المَكْتبات الخصوصية البَدَوِية المُتنقلة المُتهالِكَة، وفي تلافيفِ أدْمغةِ وذاكِرةِ رجال ونساء الجِيل السابق، عبْر جلساتٍ أشْبَهَ ما تكونُ بجَلساتِ التنْويم المغْناطيسيّ، أو اسْتحضار الأرْواح، أو العصْف الذهْنيّ، وتقْنيات التداعِي الحُر...

فأنا الآن أتحرَّكُ في منْطِقة مجْهولة، انْحسرَ دونها مَدُّ الدراساتِ الوطنية، وبقيتْ جزيرةً معرفيةً بِكْرا، بمَنأى عن أقلام الباحثين، المُولَعَةِ بالخوْض في المَواضيع المَطْرُوقة، وتكْرار المُتداول، وتحْصيل الحاصل، والتي لم تكلف نفسها

[1]- انظر: أبو الفرج بن الجوزي: **"صيد الخاطر"**، دار القلم، دمشق، ط1، 2004م، ص 498، حيث يعلن ختامه: "مقتصرًا فيه على ما به "التخلي من الأمراض النفسية، والتحلي بالآداب الشرعية، والأخلاق المرضية".

-غالبا- عناء تحقيق ماهية البحث، الذي هو -في كنهه- تنقيب عن المجهول، وفعْل لغير المفعول، وتعليم لغير المعلوم، وتفهيم لغير المفهوم، حيث ظَّل الدارسون للأدب الموريتاني -في مجملهم- يُدْمِنون الدوَرَانَ في الحَلقة المُفْرَغَةِ ذاتِها، حتىٰ ترسَّخَ لديهم أنْ "ليْس في الإمْكان أبْدَع ممَّا كان"، وأنْ لا وُجُودِ لُمَدَوَّناتِ شِعْرِيَّةٍ -مهمة- خارجَ مَدَارِ رُؤْيَتِهم ومنطقة اهتمامهم، وهنا لابد أن ألتمس العذر لجهل بعض الباحثين، وتجاهل بعضهم، **لأدبيات** هؤلاء القوم، إذ من الضروري الاعتراف بأنَّ **"أهل آدب"**، لم يعلنوا منتجهم، ولم يقدموه للآخرين، وبأن أي باحث، من خارج دائرة **"أهل آدب"**، لو تجشم اريتاد الآفاق، غير المكتشفة حتىٰ الآن من ثقافتنا، وقرر البحث في أدبيات هذه العائلة، لوجد صعوبات كثيرة في فهم السياقات والأنساق الخصوصية هناك، إذ لكل بيئة أسرار ورموز وإيحاءات وخلفيات، لا يكاد يفهمها إلا أبناؤها، باعتبار "أهل كل مكة أدرىٰ بشعابها".

ولعل أقرب دليل علىٰ ذلك هو أسماء الأسرة التي أتصدَّىٰ الآن لمقاربة تراثها؛ فالأسماء الشائعة المتداولة والمشهورة لأفرادها، ليست هي الأسماء التي يوقعون بها علميا في فتاويهم، وكتاباتهم، ووثائقهم عموما؛ فمن أين لباحث يعرف **"آدب"** مثلا أن يعرف أنه هو **عبد القادر** بن سيد الأمين؟ ومن أين لمن يعرف **"سيدي" بن آدب** أن يفهم - من وثائقه- أنه هو **محمد بن عبد القادر** بن سيد الأمين البوسيفي؟ أو لمن يعرف شقيقه **"الشيخ أحمد" بن آدب**، أن يدرك أنه هو الذي يوقع **بأحمد بن عبد القادر**، حسب ما درج عليه هؤلاء القوم من توقيعات ينتزعون فيها الكنىٰ، وألقاب السيادة والمشيخة، من أسمائهم، ويتواضعون بكتابة الاسم الأصلي المجرد لكل منهم، حتىٰ ولو كان أصبح شبه مجهول في سياق التداول التوقيري الذي يحظون فيه بالتبجيل والتدليل؛ فلعل هذه أبسط المشاكل العلمية التي يمكن أن تواجه أي باحث من خارج محيط الأسرة

نفسها، بل إنه لن يمضي وقت طويل حتىٰ يصبح أجيال الأسرة القادمون أنفسهم معرضين لهذا التضليل؛ لتقادم العهد بينهم وبين هذا التراث.

ينضاف إلىٰ ذلك مشكل اختلاف البيئات، وتمايز أخلاقياتها، وعادات وثقافات كل منها عن الأخرىٰ، إذ في ضوء ذلك ربما يتعرض للتضليل أيضا أي باحث أراد أن يقرأ نتاج منطقة معينة، مستصحبا نتائج قراءته لتراث منطقة أخرىٰ، حيث ستتولد عن ذلك مصادرة وقياس مع وجود الفارق.

وأمام هذا كله قررتُ أنْ أحوِّلَ القرَابَةَ من عائقٍ عن البحْث العلميّ، إلىٰ حافزٍ عليْه وجسْر إليْه، اسْتِشْعارًا لمَسؤوليةٍ أخْلاقية، وعلْمية، ووطنية، تدْعو لتَجَشُّم عنَاءِ القِيام بهذا الدوْر، في سَبيلِ تَلافِي جُزْء مجْهولٍ من تُراث هذا البلد، وهذه الأُمَّة، ولعَلَّ هذا ما يجْعلُ التصْريحَ بالاقتصار علىٰ تَناوُلِ أدَبياتِ منْطقة مُحدَّدَةٍ، أو قبيلةٍ مُفْرَدة، أو أسْرَةٍ مُعَينةٍ -علىٰ عِلَّاتِه- أكْثر مِصْداقيةً من هاتيكَ الدراسات القائمة علىٰ مُصادرات تدَّعِي فيها تعْميمَ موضوعها، وتناولها باسم **"شنقيط"**، و**"موريتانيا"**، وهي - في **الحقيقة**- تستخدم **"مجازا مرسلا"**، تطلق فيه **"الكل"**، وهي تريد **"الجزء"**.

وهكذا يكونُ مُجَرَّدُ اقْتراحي لعنوان عن **"المقاومة الأخلاقية في أدبيات أهل آدب"** فيه استرجاع، مزدوج لظلال من الجانب **الروحي/ الأخلاقي** لهذ العائلة، حيث كان لها **كثير من المريدين**، في مختلف أطياف محيطها الاجتماعي، وحتىٰ خارجه، منذ تسلم عبد القادر **"آدب"** بن سيد الأمين، **إجازته**، من يد الشيخ سيدي بن المختار الهيبة، في حضرته الجليلة المنتشرة الإشعاع المعرفي، والعرفاني، سنة: 1265هـ-1848م، **"في الأوراد القادرية، والأحزاب والتوجيهات المحمدية والمختارية، أخذا وعطاءً وروايةً وإرْواءً، بالشرْط المَألوف والسَّنَنِ المَعْروف خَلَفًا عن سَلَفٍ..."**، ثم ضرب الزمان ضربانه، أخيرا، وفعلت تحولاته في أحفاد المشائخ وأحفاد المريدين فِعْلها، فامَّحت أسماء الأسلاف، من سلسلة القادرية، أشياخا ومريدين، لدىٰ المهتمِّين بها من الأخلاف.

زد على ذلك أن في النصوص والفصوص المستدركة هنا من نثر القوم وشعرهم، شاهدا على **أدبياتهم**، التي قلَّ من يعرف – عنها اليوم– سوى أصداء الشهرة الشعرية الطاغية **لمحمد بن آدب**، وكأنَّ محمدا ليس سليل **"بيت شعر" وأدب، وفقه، وصوفية، وأخلاق، عريق** في سلالته المتوارثة أجيالا، ومُتَمَكِّن في **سلسلة سنده** الطويل المتصل عبر العصور.

وفي الأخير أعتقد أن منطوق العنوان الصريح، المخصوص بهذه العائلة، سوف يعفيني من محاسبة القراء لي على عدم التطرق إلى أي موضوع، أو استطراد لا يلامس جوهر العنوان، فأنا رهينُ أطروحتي ووفيٌّ لها، ولم أخادع أحدا بادعاء شموليةٍ حقيقتُها الخصوصيةُ في النهاية، حتى تناولي لقبيلة **كنتة** عموما، وفخذ **أولاد بوسيف** خصوصا، لن يكون إلا تدرجا إلى **أهل آدب** بصورة أخص.

ثانيـــا

التكنتي، والتفتي

إنَّ وصْفَ **"التكَنْتِي"**، الذي وُسِمَ به هؤلاءِ القوْم، قد **انتقل**-عبْر التاريخ- **من النسبة العرقية** "الكنتية" التي أخذها سيد **محمد الكنتي** الجد الأعلى للقبيلة من أمه، **إلى النسبة الأخلاقية** البحتة، حيث كان -في أصْل إطْلاقِه- يَخْتَزل مَنْظُومَةً من القِيم الفضيلة النبيلة.. تُرَادِفُ" **اسْتَفْتِي**" باللهْجَة الحسَّانية، أو **"التفتي"** الذي هو **"الفُتُوَّة"** بالفُصْحَى[1]، لكنَّ **"الكرَمَ/** السخاءَ" كانَ **أبْرزَ** تلك المَنْظُومَةِ الأخلاقية، **وألْصَقَها برُوح "التكَنْتِي" و"التفتي"** مَفْهومًا ومُصْطَلَحًا، وهُوِيةً وذِهْنِيةً، والعجيب أن معاجم اللغة العربية غلَّبَت السخاء والكرم في منظومة قيم **"التفَتِّي"**، كما هو حالها في **"التَّكَنْتِي"**؛ ففي الصحاح: **والفتى**: **"السخي** الكريمُ. يقال: هو فَتًى بيِّن الفتوّةِ. وقد **تَفَتَّى** وتَفاتى"، بل إن صاحب تاج العروس تجاوز إلى المعنى الأخلاقي العرفي **"للفُتُوَّةُ"**، فهي **"فِي عُرْفِ أَهْلِ التَّحْقِيقِ** أَنْ يُؤْثِرَ الخَلْقَ على نفْسِه بالدُّنْيا والآخِرَةِ.

وصاحِبُ الفُتُوَّة، يقالُ لَهُ: **الفَتَى**، وَمِنْه: **"لَا فَتَى إلاّ عليّ"**؛ وقولُ الشاعِر:

فـإنّ فَتـى الفتيـان مـن رَاحَ واغْتَـذَى لـــضرّ عـــدوّ أَو لنَفْـــعِ صَـــدِيقِ

[1]- جاء في: **شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم**: [التفتي]: تفتّى: من الفتوة.

وعُبِّرَ عَنْهَا فِي **الشَّريعةِ بمكارِمِ الأخْلاقِ**، وَلِم يَجِئْ لَفْظُ الفُتُوَّة فِي الكِتابِ والسُّنَّةِ، وإنّما جاءَ فِي كَلامِ السَّلَفِ، وأَقْدَمُ مَنْ تكلَّمَ فِيهَا جَعْفَرُ الصّادِق، ثمَّ الفضيلُ، ثمَّ الإمامُ أَحمدُ، وسهل، والجُنَيدُ، وَلَهُم فِي التَّعْبيرِ عَنْهَا أَلْفاظٌ مُخْتَلفَةٌ والمآلُ واحِدٌ".

وبعد هذا المقتبس التأصيلي "للفتوة" لغة وعرفا، نتلمس الخيط الواصل بين **التكنتي والتفتي**، الذين **جعلتُهما وجهين لعملة أخلاقية واحدة**، في تمهيدي لأطروحة **"المقاومة الأخلاقية"**، التي أقاربها في **"أدبيات أهل آدب"**، وهنا نجد أن **الجد الثاني** لقبيلة كنتة الذي انبثقت منه فروعها، ربط بين هذين المفهومين، عندما سأله أبناؤه ذات مرة عن نسبهم المرفوع إلى فاتح إفريقية العظيم: **عقبة بن نافع** الفهْري **القرشي**، فاستمْهَلهمْ حتى الصباح، وعندما راجعوه في الموعد: فاجأهم: **بقصعة ولوح**: وقال لهم هذه **أمُّكم**، وهذا **أبوكم**.... موجها إياهم إلى **النَّسَب القِيمِيِّ** الخُلقيِّ، الذي يرجع للشَّخْص الفضلُ في كسْبه، صارفا نظرَهم عن **النسَّبِ الطِينِيِّ**، الذي يشتركُه بنو آدم جميعا، وليس من كسب وارثِه من أبويه، ويصعب تحقيقه والتحقق منه.

وقد رَصَدَ أَحَدُ مادِحِيهِمْ مُجْمَلَ منظومتهم الأخلاقية، حيث قال في لامية من الطويل:

سلامٌ عليْكم، أيُّها المَلَأُ الأعْلى ... سلامٌ يعُمُّ الشِّيبَ والمُرْدَ والطَّفْلا
على بَاحَةِ الكنْتِيِّ؛ فرْعًا، ومَحْتدا ... سلامٌ على كَرِّ الجَدِيدَيْنِ لا يَبْلَى
يَطيبُ كطِيبٍ منْ أطايبِ طِيبهمْ ... لذيذ، ومنْ أحْلَى حَلاوَتِهمْ أحْلى
ألذّ، وأشْهى من مُعاقَرَةِ "الأتا" ... ومِنْ قَرْقَفٍ فِي الدّنِّ مُعْتَقَةٍ حَوْلا
إذا ظَعَنوا؛ فظَاعنٌ معهمْ، وإنْ ... هُمُ نزَلوا وكْرًا؛ ففِي وَكْرِهِمْ حُلَّا
فحقَّ لهمْ أنْ كلُّ حَيٍّ يُحِبُّهُمْ ... وكُلُّ نَبيلٍ أنْ يُعَظِّمَهُمْ نُبْلَا
وحقَّ لهمْ مدْحٌ علَى كلِّ مَادِحٍ ... وذلكَ نزْرٌ مِنْ مدائِحِهمْ قَلَّا

هُمُ القوْمُ لا يَشْـقَى جَلِـيسٌ لهـمْ، ومـنْ ... يُبارِزْهُمُ حَرْبًـا؛ فقـدْ حـاربَ المَـوْلَى
إِذَا زُرْتَهُـمْ زُرْتَ المَعَـارِفَ والتُّقَـى ... وحُسْنَ السَّـجَايَا والبَشَاشَـةَ والبَـذْلا
وإنْ ضـفْتهمْ ضـفْتَ السـماحَةَ والهُـدَى ... وتوْسِعَةَ الأكْنَافِ، والرَّحْـبَ، والسَّـهْلا
وإنْ شـمْتَهمْ شـمْتَ الـبُرُوقَ لوامِعًـا ... تَسُوقُ -إِلَى الأجْرَازِ- أسْواطُها الـوبْلا
وإِنْ جِئْـتهمْ ألْفَيْـتَ عنْـد بُيـوتِهِمْ ... مَجَالِسَ قـد تُطْفـي بأَحْلامِهـا الجهْـلا
هـمُ البـاذِلونَ عِلْـقَ كـلِّ مَضـنَّةٍ ... هُمُ التـاركونَ مـا يُعـابُ، ومـا يُقْـلى
بنُو الحَرْبِ، عنْـد الحـرْب، أسْـدٌ بَوَاسِـلٌ ... ضَوَارٍ، تَخافُ النَاسُّ أنْيَابَهـا العُصْـلى
وفِي السِّلْم، عنْد السِّلْمِ، بـيضٌ وُجُـوهُهمْ ... تُضِيءُ الدُّجَى، كَالبَدْر، فِي الصحْوِ، إذْ هَـلَّا
إذا لبسُـوا أدْرَاعَهـمْ فضَـرَاغِمٌ ... وإِنْ لبسُـوا تِيجـانَهمْ فهَـمُ الجُـلا
فـأكْرمْ بهـمْ حِزْبًـا، وأكْـرِمْ بهـمْ أبًـا ... وأكْـرِمْ بهـمْ أمًّـا، وأكْـرمْ بهـمْ نسْـلا

ثالثـــا

أولاد بوسيف
خصوص الخصوص

هنا يبدو أيضا أن الشيخ سيدي المختار كان يربط بين **"التَّكَنْتِي والتَّفَتِّي"**، بشكل عام، ويعتبر **"أولاد بوسيف"** قوم **"أهل آدب"**-محور بحثنا- هم مضرب المثل في ذلك، حيث يروي عنه ولده وخليفته الشيخ سيدي محمد، في كتابه: **"إرشاد السالك إلى أقوم المسالك"**، الذي ألفه لتلميذه ومريده: مُحمد "ويقي" بن سيد الأمين بن محمد بن الطالب اعمر بن خيري البوسيفي، -شقيق **آدَبَّ**- موحيا بأن فتوة القوم تدٌخل في صميم مقامات السالكين، حيث أورد القصة في آخر الفصٌل الأول في منزل الإخلاص من الباب الثاني في مقام الايمان، في الكلام على الفتوة، فقال: «وسألت **الشيخ** الوالد رضوان الله عليه عن **الفتوة**، فقال: **ما كان عليه سلف كناتة من كمال المروءة، وتمام الإيثار، وحسن الجوار**،... ارتحل أحياء كناتة من المغرب الأقصى إلى الساحل، وخلَفهم في ديارهم **الأمين بن أبي أذينة الأبي بكري** بمراصد الأضياف، وكان يحلب مائة لقحاء، فزحَمَتْه الأضياف، فأنفق حتى فني ما عنده من الزروع واللحوم. ثم عمد إلى لقاحه ينحرها للضيف ويلقي شُمُلَها على شجَرة بجانب خيٌمته، حتى أتى على آخرها، فبلغ ذلك **محم بن أحمد بن أبي سيف**؛ فآلى ألا يقيم حتى ينزل عليه، فارتحل بحيه **بني أبي سيف**، فلما نزلوا بقرب من **الأمين** غدوا عليه مُسَلِّمِينَ، فلما ركبوا من عنده قافلين أخذ كل واحد

منهم من تلك الشُّمُل، حَتَّىٰ أتوا علىٰ آخرها، فأراحوا عليه مائة لقحاء بأَتْلائها، وما يكفيه من الحمولة، فأصبح راحلا فيهم من أغناهم وأوسعهم ذات يد"[1].

وفي هذا الإطار أيضا يروي (**الشيخ سيدي محمد** بن **الشيخ سيدي المختار** في كتابه **الطرائف والتلائد** في ترجمة والديه: ما محل الحاجة منه هنا قوله: "وكان رضي الله عنه يعني والده الشيخ سيدي المختار حريصا علىٰ أداء فريضة الحج، لم تنحلَّ عزيمته عنه، بل سمعتُه رضي الله عنه يقول: ما أعجلَ قفُولي من أرض المغرب الأقصىٰ إلا مبادرة الحج، مع وطأة بلاده للإقامة بها في أكرم إخوان، وأخلص خلصان **من أكابر أولاد أبي سيف**، كـ **محم بن باب** و**أبنائه**، و**أبناء جيْبابَ**، و**أبناء الطالب أعمر بن خيري**، و**أولاد سيد أوبك** بن أحمد، و**المعزوز**، وغيرهم من الأمجاد، الرؤساء والأجواد، العلماء الموطئي الأكناف، المجبولين علىٰ الإسعاف والانصاف، والاتصاف بأجمل الأوصاف.

حتىٰ أنه قد لقيني يوما بعضُ **رؤساءِ أولاد الناصر**؛ فقال يا فلان: أي كناتة أهلك؟ قلت: جميع كناته أهلي، قال: وإن كان كلهم أهلك ففي **الخصوص خصوص**، فأخبرني عنه وإلا أخبرتك، قلت: أخبر.

قال: **يا شيخ**، إذا وقع **جبلٌ** من السماء، فمنٌ يُقِلُّه؟ قلتُ: **الأرضُ**، قال: فأنْت **جبلٌ**، **وأرْضُ كَنَاتةَ أولاد أبي سيف**؛ فلا يكونُ لك أهلٌ غيرُهم.

قال: ومن أبدع ما رأيت من شأنهم أنه وقع نزاع فيما بين رئيسين من رؤسائهم في شان الولاية علىٰ "**الرفقة**"[2]، خيفَ منه الفسادُ والفِتنةُ، ودخلَ "**تَاكرُ الدليْمي**"-بعدما قتل في غزْو فتًىٰ من فِتْيان **أولاد أبي سيف**- خيمةَ **المَعْزوزِ** ليْلا "دَخِيلًا"، فأصبحَ أهلُ الثأر يطلبونه بثأرهم ليقتلوه، و**المعزوز** يأبىٰ إسلام دخيله، قال: فغدا عليَّ **محم بن باب**، وقال: يا فلان، تدارَكْ **أولاد أبي سيف** وإلا هلكوا، فقد عجزتُ عن إصلاح ذات بينهم، فقلتُ له: إذا أصبحت من غداة غد فأمر

[1]- هارون بن الشيخ سيدي: **الأخبار** "المدون"، ص 70.

[2]- تطلق في اللهجة الحسانية الدارجة علىٰ قافلة الميرة، الشبيهة عندهم بمصطلح العير عند العرب قديما.

بخيمة تبْنى على تلك **النبكة**، وأمر بمن يَضْربُ **الطبْلَ**: أنْ لا يتخلف رجلٌ عن موْضع الطبل، ثم عمدتُ إلى ناقة ماخضٍ كأحسن ما يُرى من مخَاض النياق، فقلتُ لسيدي علي: إذا أصبحتَ، وغدوْتُ إلى الخيْمَة التي تُبْنى، فاسْتَقْ هذه الناقةَ واعْقِلها بإزاء الخيْمة. قال: فلمَّا أصبَحنا بُنِيَتْ الخيمةُ، وضُرِبَ الطبْلُ، واجْتمعَ الناس، فركبْتُ إليْهم، وأقبلَ سيدي علي يسوق ناقتَه، فلمَّا وافيتُ الناسَ مُحْدِقِينَ بالطبْلِ، وافَى سِيدي علي بناقته فعَقَلَها بحيْث يراهُ الحاضرون، فقلتُ: يا فِتيان بنِي أبي سيف "**لحْمار**"[1] هذا سيدي علي جاء بهذه الناقة، فليأت كل واحد منكم بمثلها، أو بأعلى منها، قال: فو الله ما التفت أحد منهم إلى غير الجهة التي كان وجهه إليها، بل انصرف كل واحد منهم للجهة التي كان متوجها إليها وكأنما كانوا جرادا، فطار؛ فلم نلبث أن جاءوا من الجهات، ومن لا يسوق منهم ناقة لقحاء عليها شمالها تتبعها أنثى، يسوقها ماخضا تدافع ضرعها، حتى اجتمع على تلك النبكة مائة وعشرون ناقة ما بين لقحاء وماخض، قال: فذهبت إلى أهل القتيل، فأعطيتهم مائة ناقة دية عن صاحبهم، وتشفَّعْتُ إليهم في العفو عن الجاني فعفوا عنه.

وذهبت بعشرين ناقة لقحاء تتلوها عشرون حوارة أنثى، فتوجهت إلى "احميدتُّ" في أن يترك "الرفقة" وزعماتها، ويأخذ العشرين ناقة، فقال: "أمَّا الزعامة فقد تركتُها لوجْهِكَ، وأمَّا النياق فلا آخذها، فقلت له: لا تردَّ هذا الخيرَ المَسُوقَ إليك، وخذه لوجْه البركة، وأنَا عازمٌ عليْك فِي قبوله؛ فقبِلَ ذلك، وسكنتِ الفتنة، ولله الحمد والمنة"[2].

وفي هذا السياق يقول **محمد بن باب** بن باب أحمد بن الشيخ سيدي المختار الكنتي في همزية من البسيط:

---

[1]- لفظ يعني في اللهجة الحسانية محكاة شخص لآخر، في فعله، وهنا يحضم على المنافسة في التكرم بالنوق، من أجل الحمالة التي يفكر فيها.

[2]- الجزء الخاص بكنته من **الأخبار** "المدوَّن": ص 134- 136.

بنـــو الكـــريم أبي ســـيف ألِبَّـــاءُ ... وهـــمْ لمـــنْ صَـــحِبُوا - حَقًّـــا - أَوِدَّاءُ
أحْـــوالهمْ في الحـــروب غـــير خافيـــة ... والســـلم فيـــه لهـــمْ ذكْـــرٌ وأنْبـــاءُ
وهـــم عبيـــدٌ لمـــن رامـــوا تَعَبُّـــدَه ... وأسْـــدُ غـــابٍ - لمـــنْ عـــادوْه - ضُرَّاءُ
إنْ قـــالَ قـــائلهمْ: هـــذا نـــزيلكمُ ... قد جاءَ.. لَبَّوْا.. وزالَ الكرْبُ والداءُ
صـــدورهمْ مـــن رُيـــونِ الغِـــلِّ خاليـــة ... كـــأنما خـــاض في أرجائهـــا المـــاءُ
أكُفُّهـــمْ بـــالنوالِ.. إنْ خَـــبرتهمُ ... سُحْبٌ، وأنْفُسُهمْ - بالبـذْل - سَـحَّاءُ
غنِـــيُّهمْ وفقـــيرهمْ سواســـية ... في البذْلِ، إنْ دهمتْ - في الدهْر - دهْماءُ
تـــرى الفقـــيرَ غَنِيًّـــا، وهْـــوَ لـــيسَ لـــه ... - من كسْبِه - إبِلٌ - تُلْفَـى - ولا شـاءُ
بـــل القناعـــة.. كنْـــزٌ لا نفـــادَ لـــه ... فاسْـــتعْملوها.. وفضْـــلُ اللهِ ســـحَّاءُ
لهـــم خلائـــقُ تنْفِـــي العـــارَ... ... .
توارثوهـــا عـــن أجْـــدادٍ أســـاتذة ... كـــلٌّ - عـلى حـدة - كالبـدْر مضْـواءُ
فاســـتنبطوها بـــنص كـــل ذي مِقَـــةٍ ... لله.. فاستنبطوا - بالنصر - ما شـاءوا
وهـذَّبُوا العِـرْضَ بـالأموال جاريـة ... كَرَّ العُصـورِ لهـا - بـالكثْرِ - إسْـداءُ
فبـــارك الله فـــيهمْ، ثـــمَّ أيَّـــدَهُمْ ... عـلى العُـداة.. وجُـلُّ النـاسِ أعْـدَاءُ
وعَمَّهـــمْ بنعـــيمٍ لا يفـــارقهمْ ... لهـمْ بـه - عـن لِئـام النـاس - إغْنـاءُ

ويقول أحدهم يرحب بوفد من أولاد بوسيف (من الطويل):

لقـد سَرَّنـا إذْ فـاحَ عَـرْفُكمُ العَطِـرْ ... ولاحتْ بُروقُ الوُدِّ من نوْئِـكَ المَطِـرْ
فيـا مرْحبـا، أهْـلا، وسـهْلا بطلعـة ... مـن أبْنـا أبي سـيفٍ سواسـيةِ النّفَـرْ
ألا مرْحبا، أهْلا، بكـم، خـيرَ عُصْـبَةٍ ... تفانتْ على عهْد مَدى الـدهْر مُسْـتَمِرْ
علـيكمْ سـلامُ الله، مـا هبَّـتِ الصَّـبا ... ومـا انْهَمَلَـتْ مُـزْنٌ بوابِـلِ مُنْهَمِـرْ

رابعـــا

أگان: "ربْع عَزَّة البوسيفيين، وعزتهم"

لقد كانت منطقة **"أگان"** وما جاورها إحدىٰ مواطن أولاد بوسيف الأثيرة لديهم، وقد قال هارون بن الشيخ سيدي إن (الحراطين من أولاد بوسيف... أرضهم آگان، وما يليه من التومر، ومن تگانت)[1] وقد ذكر بعض الشعراء، نفوذهم هناك، ومنعة حريمهم، حيث قال الإمام بن ماناه الجكني الرمظاني، من مخضرمي القرنين 12-13هـ يفخر بقومه، ويعتز بمنعة جيرانهم أولاد بوسيف الذين يعتبرهم أسباطا وأحفادا لبني جاكان، لخؤولتهم منهم عموما، ومن الرمظانيين قبيلة الشاعر خصوصا (الوافر):

لقـــد رَمَـــت الأوانَ بكـــل طـــود ... هـــو المْرمـــى "بجاكـــان" القبـــابُ
عـــلى أنْجـــادِ آگـــان الأعـــالي ... بحيـث -الـدهرَ- ينسـكبُ الربـابُ
ونحـــن النـــازلون ذرى المعـــالي ... ونحـــن التـــاركون لمـــا يُعـــابُ
ونحـن بنـوا النضـال، ونحـن أدرى ... كأنـــا أهـــل مكـــة والشـــعابُ
مَـــرَادٌ بـــين أحْفَـــادٍ مُلـــوكٍ ... مَكاسِـــبُها الوَجاهـــةُ والرِّقـــابُ
فحاطوهـــا بجـــاههمُ فأضـــحتْ ... تِـــلادًا لا شـــقاءَ، ولا حِســـابُ
بنِـــي صـــلْبِ العُـــلا وأبِي الأعـــالي ... أبي سْـــيْفٍ، وجيرتُهـــا الرقـــابُ
وبـــين الهـــام مـــن "بـــرْكنّ" جـــار ... وقـــد غصـــتْ بهـــم أرْض رحـــابُ

[1]- مسودة الجزء الخاص بكنته من **"الأخبار"**، ص 122.

حبانـــا عـــن تكرّمنـــا احترامـــا كـــما احْـــتُرِمَ المصـــاحفُ والكتـــابُ
ومرْمـــى مـــن أولئـــك قـــابَ قـــوْس ومـــن "جاكـــان" والأســـباط قـــابُ
فـــــنِعْم المهـــــد بـــــين أبٍ وأمٍّ جهـــادٌ لا سُـــكون، ولا اضْـــطِرابُ[1]

أما **سلفنا** النَّسَبِيّ والأدَبِيّ، من **أبناء الطالب اعمر بن خيري** فقد كانوا يعتبرون **"أگان" ربع عَزَّتهم وعِزَّتهم**، فزرعوا خرائط تلك الأرض بالحب والشعر، وعرفوا كيف ينفخون روح الوطن إعصارا في بحور القصائد، مستحضرين -هناك- عهد القوة والسيادة والملك، الذي ذكره خالهم الشاعر الجكني، فهذا:

1- أحمد بن المختار بن أحمد بن الطالب أعمر بن خيري البوسيفي

يدندن حول تشوقه إلى مرابع قومه في منطقة **"أگان"** شمال مقاطعة مقطع الحجار الحالية، حيث يعتبر ابتعاده عنها، غربة ممضة، حتى ولو كانت إلى منطقة **"فصْك"**، مدفن سيدي محمد الكنتي الجد الجامع لكناتة قبيلة الشاعر، حيث يقول من الطويل:

ألا فـاعجبَنْ -يـا قلـبُ- مـنْ مُلْـكِ ذِي المُلْـكِ
إذَ أنـتَ لـدَى الجِـوَا، وفي السـفْحِ مـن "فَصْـكِ"
وقـــد كنـــتُ لا أنفـــكَّ بـــين مَـــنازل
بهـــا نِـــيطَ -في جِيـــدي- تَمَـــائمُ، في السِّـــلْكِ
فعـــاتق "تِنْقَـــرَاشَ"، فـــ"النَّبْـــك"، فـــالرُّبَى
إلى السَّـفْحِ مـن "وَازَانَ"، فـالنَّعْفِ مـن "ينْـكِ"

[1]- الدكتور محمد المختار بن اباه: **الشعر والشعراء في موريتانيا**، الشركة التونسية للتوزيع، ط 1987، ص 344- 345.

بـــلادٌ بهـــا كنَّـــا- عـــلى رغْـــم حاســـدٍ
أمَـــامَ الـــوَرَى، في العلْـــم، والحلْـــم، والمُلْـــكِ
وقـــد كـــان للأيـــام -في الـــدهر- للفتـــى
منـــازلُ، مـــن رحْـــبٍ، عليـــه، ومـــن ضـــنْكِ
ومـــن عـــاشَ في الأيـــام لا بـــد أنْ يَـــرَى
حـــوادث مِنْهَـــا مَـــا يَسُـــرّ، ومـــا يُبْكِـــي

وعندما رمت به الحياة بعيدا عن معشره الذين يراهم "أمام الورىٰ في العلم، والحلم، والملك"، ومرابعه الآنفة التي يراها جنة الدنيا، انفجر علىٰ لسانه أول نص -فيما نعلم حتىٰ الآن- من شعر **"الزريگة"**، الذي يمزج بين مفردات العربية الفصيحة، ومفردات اللهجة الحسانية الدارجة في القصيدة، وعبْرَه يهدي لمقطع الأحجار ونواحيه شرف ريادة فن **"الزريگة"**، ما لم يوجد نص أقدم، فشاعرنا كان حيا في بدايات القرن 13هـ، قبل أحمد بن أحمد يوره، ولكيبد بن جبه، الرائدين المشهورين لهذا الفن في منطقة القبلة، حيث قال نونيته "الزرقاء" في ظروف طلب العلم الشاقة، وشظف حياة المتغربين من تلاميذه بين المحاظر، حيث قال من البسيط:

يـا مـن لمكتئـبٍ، حـيْرانَ، ولْهانـا — نـائي المُـؤنس، مـن أحْيـاءِ آگانـا
رمـى بـه القـدَرُ المحتـوم في بلـد — مـا إن يـرى أحـدا يوليـه إحسـانا
يبيت في دهش "ديْسانَ" من سـغب — وفي النهار ضـحى، حميـان، عطشـانا
ينام في "الصَّمْرَ" في بـرد "يُگبگبـه" — ولا فراش يقيـه الأرض "گرْسـانا"
يظـل إن ظعنـوا رجـلان بيـنهم — لم يحملـوه إلى أن راح حـسرانا
لا مـن يقـول لـه: "هـجٍّ"، فتنفعـه — "فلَحْـر كـاعْ" أحـد يعطيـه كتَّانـا
إنْ رامَ مـن أحـدٍ بـذْلا هُنـاك غـدَا — مِثْلَ "الصگوط" الذي يجيئُ حشْمانا

عند التحاليب وقْتَ العَتْم منطويا ولم يجدْ بَلـلًا فقام نكْدانا
يا ليْتَ شعْريَ، هل آتي إلى فضِلٍ يزيلُ -إنْ جِئْتُه- عنيَّ- إدْخانا
أو شئْت ذا أدبٍ، قرْما، أخا كرم من رامَ نائلَه لم يلقَ حرْمانا
لم يَعْتَذِرْ، قَطُّ، منْ عدْمٍ يكونُ به إلى العُفَاةِ، ويُعْطِي العاطي عجْلانا
ولا يذوق مذاقا وسْط خيْمته عنْ جارِه، أبَدًا، إنْ كانَ غرْثانا
"مَنْدَرْتِ" عن معْشر ذا هوَّ وصْفُهم أهْل المَكارم ذكْرانا ونِسْوانا
سِيَّانِ، في المَجْد، يا منْ كنْتَ جَاهِلَهم بَنُو أبي السيْف، لا فخْرا، ونكْرانا

وغير بعيد، من هذه المرابع يستثير شجوه نزوله في منطقة مقطع الحجار، من ربوتي "التوأمين"، غربيه، إلى "التاشوط" (تاشوط أولاد بوسيف) شرقيه، فيقول من الكامل:

أغْرَى المَدامعَ، والشجونَ، هبوطي بـ"التَّوْأَمَيْنِ"، ضُحًى، وبـ"التاشوطِ"
أيامَ كنتُ بها، و"كنْتَه" برَبْعِها والدهْرُ يَرْفلُ، مائسا، بمُروطِ
...مَهْلا.. فهذا الدهْرُ ما اسْتِقْرارُهُ -في صَرْفِه- مِنْ شَرْطِهِ المشْرُوطِ
ما شَأنُ حُرٍّ.. ماهِرٍ بصُرُوفه في رحْمَة الرحْمَانِ.. شَأنَ قنُوطِ
ولقد محَضْتُ النُّصْحَ.. غيْرَ مُغَالِطٍ فِي هَذْيِ خبٍّ.. بالفُضُولِ.. غَلُوطِ
إنْ يَهْذِ -فِي إسْقَاطِ قَدْرٍ- سَاقِطٌ فَارْفضْهُ -فِي هَذَيَانِه- لسُقُوطِ

2- الشاعر: أحمد بوه بن محمد بن محْمد بن الطالب اعمر بن خيري البوسيفي، ابن عم أحمد بن المختار الآنف الذكر، حيث يقول في همزية من البسيط:

يا بـرْدَ ما هبَّ من نحْو الأحِبَّاءِ من ناسمٍ دبَّ في صدْري وأحْشائي!
هبتْ عليَّ نُسيْماتٌ.. تُجَدِّدُ لي ذكْرَ الأوِدَّاء، فمنْ لي بالأوِدَّاء؟

مَــنْ لي بِــرَدِّ زمــانٍ، لا مَــرَدَّ لــه ... يُغْضِي جفونَ المَساوِي كـلَّ إغْضـاءِ
وأهْـلِ دارٍ.. بهـا دارتْ- مُشَعْشَـعَةً ... أقــداحُ صرْخَــدِها بــيْن الأخِــلَّاءِ
دارٍ مــن الجِــيرَةِ الأحْيَــاءِ مُقْفَــرة ... بــيْن الجُرَيْــفِ، وآكــامِ الحُمَــيْرَاءِ
عَــرِّجْ عَلَيْهَــا، وَسَــلْهَا أيْــنَمَا ذهبــتْ ... سُــعْدَى، وأتْرابِهــا مــن كــلِّ بيْضــاءِ
ومــا سُــؤالُكَ عــنْ سُــعْدَى ببالِيــةٍ ... مُذْ أزْمُــنٍ، طمَسَــتْها الــريحُ، صــمَّاءِ؟
إنْ تمْــسِ مُمْحِلَــةَ الأرْجــاءِ خاليــةَ ... مــن آل لــيْلَى، ومــن لــيْلى، وأسْــمَاءِ
أو تُمْسِ مهْجـورةَ الأكْنَـافِ، مُذْكِيـة ... نــارَ الأسَــى بفــؤادي أيَّ إذْكــاءِ
فكمْ تَضـاحَكَ، حـوْلَ القـاطنينَ بهـا ... فِي روْضــةٍ مــن بَسُــومِ الزَّهْــرِ غنَّــاءِ

3- أحمد بن أحمد اشنان بن بُو ابراهيم بن حبيب الله (حيْبَلَّ) بن باب بوسيف، دفين مقطع الحجار: وهو خال أبناء سيدي الأمين بن امحمد بن الطالب اعمر بن خيري: مُحمد (ويقي)، والشيخ، وعبد القادر(آدب).

كان هو الآخر له نصيب من الشاعرية البوسيفية المسكونة بحب هذه المنطقة، والحنين إليها، والدفاع عنها، فهنا يقول في لامية من الخفيف:

ليْت شِعْري، من أيْـنَ ريَّـا الغـوَالي؟ ... أسَرَى في الجنُــوب؟ أم في الشــمال؟
غــالنِي الــدهْرُ بــالخُطوب، فمــنْ لي ... بمُعــينٍ، عــلَى صُروفِ الليــالي؟
لــيس يشــفيكَ، مــن مُصَــابكَ، إلَّا ... أنْ تجــوبَ الفَــلاةَ فــوْق الرِّحــالِ
قاطعًــا صــعْبَها، بكــلِّ ذَلُــولٍ ... وذَمُــولٍ، تجــمُّ بعْــد الكَــلَالِ
جــسْرةٍ، تسْــتخِفُّ هَــوْلَ الفَيَــافِي ... لائــح شخْصــها، كمثْــلِ الهِــلالِ
مــا لهَــا مَــأْرَبٌ، بغــيْرِ رُبُــوعٍ ... حَــوْلَ ذاتِ الظِّبَــا[1]، فشَــاوٍ، فَــزَالِ
هــذه بُقْعَتــي، ومَسْــقَطُ رأسي ... حَبَّــذا سَــاكِنُو رُبَاهــا العَــوَالِي!
فعلــيهمْ منِّــي الســلامُ جميعــا ... وعــلَى الجَــار، والطُّلُــولِ البَــوَالِي

[1]- تعريب لـ"تَوَيْمِيرَّة لْهَار، شمال مقطع لحجار.

4- وهذا ابن أخته **مْحمد "ويقي" ابن سيد المين بن أمحمد بن الطالب أعمر بن خيري البوسيفي**، الأخ الأكبر لجدنا عبد القادر بن سيد ألمين **"آدب"**، كان له النصيب الأكبر من الحنين لمنطقة **"أكان"** ربع عَزَّة القوم وعِزَّتِهم، حيث يهديها تحيته وهو في أزواد بحضرة أهل الشيخ سيد المختار الكنتي، فيقول من البسيط:

هـل لِليـالي بـنظْمِ الشَّـمْلِ إسْـعادُ ... أم هـلْ لنَـارِ الهَـوَى بـالقرْبِ إخْمَـادُ؟
أمْ هـلْ تحـلُّ رُبوعـا طـابَ مَرْبَعُهـا ... مِـنْ قبْـلُ فِيهَـا إذِ الأيـامُ أعْيَـادُ؟
أمْ هـلْ يَخِـفُّ جَـوى قلـبٍ يُقَلِّبُـه ... وَجْـدٌ لـذِكْرِ اصْـطِبَارِ الوَجْـدِ ورَّادُ؟
والـدهْرُ وَسْـنَانُ، والأفْـرَاحُ دائـرةٌ ... أقْـداحُها ولحبْـلِ الأنْـسِ إحْصَـادُ؟
يـا مُعْمِـلًا لعِتَـاق الـيَعْملاتِ، لهـا ... في المَهْمَـهِ القَفْـرِ، بَعْـدَ الأَيْـنِ إسْـعَادُ
يطْـوي، لِطِيَّتِـهِ، فِـيحَ الفَـلَا، فلَهـا ... في كـلِّ فيْفـاءَ إتْهـامٌ وإنْجـادُ
يرْمـي الفِجَـاجَ بهـا، حتَّـى يُبَلِّغَـهُ ... منْهـا، إلَى الأهْـلِ، إرْقـالٌ، وإخْفـادُ
اقْرَأ على الأهْلِ، والأحْبابِ، من دَنفٍ ... لَوْعَاتُـه بازْديـادِ البُعْـدِ تـزْدادُ
صَبٍّ، تُصَـبُّ عَلَيْـهِ، للنَّـوَى، حُـرَقٌ ... منْهـا تَقَطَّـعُ أحْشـاءٌ، وأكْبـادُ
ويُضْـرَمُ القَلْبُ إضْرامًـا، ولـيس لـه ... إلا بـبَرْدِ مِيـاهِ القُـرْبِ إبْـرادُ
تَحِيَّـةً بِحَيَـا الأفْـراحِ مـاطِرةً ... منْهمْ جُمُوعًا عِـنِ الإلْحـادِ قـدْ حـادُوا
وبالخُلاصـةِ مـن تلـك التَّحِيـةِ للـْ ... أفْـرادِ مـنْهمْ، ولِلأفْـرادِ إفْـرادُ
اخْصُصْ بها الوالدينَ الأكْـرَمينَ لهـمْ ... مـن التَّحِيَّـةِ والتـوْقيرِ إمْـدادُ
فهـمْ مَنـازِلُ للـرُّوَّادِ مُخْصِـبَةٌ ... وهُـمْ مَنَاهِـلُ للـوُرَّادِ أعْـدادُ
وهمْ لُيُوثُ الشَّـرَى إنْ رِيـمَ جَـانِبُهمْ ... وهـمْ هُـمُ القـادَةُ الأمْجـادُ الانْجـادُ

ثم يقول:

لقد أهاجَ لي الشُّجُونَ تَذَكُّرِي أحْيَاءَ حَوْلَ مُلَيْزِمِ الأعْيادِ
أحْيَاءَ يَمْنَعُهَا الرَّذائلَ، والخَنَى كَرَمُ النُّفُوس، وَعِفَّةُ الأجْدَادِ

وأخيرا يخصص لـ "أگان" وساكنيه البوسيفيين قصيدة كاملة، يتلاعب فيها **بإيحاءات** أسماء المواضع هناك، تعشقا لها، وتماهيا بها، حيث قال من الكامل:

ما لِلْكَرَى أمْسَى جَفَا الأجْفَانَا ومَصُونُ دَمْعِكَ قَدْ جَرَى جَرَيَانا
و... في الأفْراحِ أصْبَحَ هاجِرا قلْبًا به اتَّخَذَ الهُمُومُ مَعَانَا؟
أَلِنَوْحِ وُرْقٍ بالغُصُون سَواجِعٍ هاجَ الهَوَى ترْجيعُها الألْحَانَا؟
أمْ بَارِقٍ لاحتْ شَوَارِقُ نُورِهِ بمَشارِقِ الأوْطَانِ مِنَ "آگانَا"؟
أمْ ذاكَ مِنْ ذِكْرَاكَ أحْبابًا نَأَوْا تركوا فؤادكَ للهوى مَيْدانَا
شادُوا بصدْرِكَ للأسَى سُورًا، وفي سُورِ اصْطِبَارِكَ هدَّمُوا الأرْكانَا
عن ناظِرَيَّ تَغَيَّبُوا لكِنَّهُمْ تَخِذُوا الترَائبَ والحَشَى أوْطانَا
سَكَنُوا بأكْنَافِ "الجُرَيْفِ" ورُبَّما زانَ الترَبُّعُ، مِنْهُمُ، "وَازَانَا"
وَأزَالَ عنْ "زَارٍ" نُزُولُهُمُ به عطَلا به، مِنْ قبْلِهِمْ، قد كانَا
وأجَالَ في "جولِ البِشَامِ" نُزُولُهُمْ فِيهِ المُنَى واليُمْنَ والإحْسَانَا
وتُرِيكَ "تُورِينُ"... في كل مشهد ..... عمرانا
أحْلَى "المَرِيرَ" حُلُولُهُمْ، والخَيْرَ مِنْ سُكْنَاهُمُ اكْتَسَبَتْ رُبَى "خَيْرَانَا"
ولهمْ مَنازِلُ ب"المِلَاحِ" تبَخْتَرَتْ فيها الملاحُ تُجَرِّرُ الأرْدَانَا
يا حبَّذا تلك الرُّبُوعُ فإنَّها كانتْ لنَا، قبْلَ الجِنَانِ، جِنَانَا!
فلَكَمْ بِهِنَّ شربْتُ كاساتِ المُنى بمزاجِ تَسْنِيمِ الهَوى جَذْلانَا!
وقطَفْتُ أزْهارَ السُّرُورِ نَوَاضِرًا لا أشْتَكِي خَطْبًا ولا حَدَثَانَا

خامســـا

وطن البوسيفيين
منطقة الجذب بين حضرتين

ضمن هذا **الفضاء** الموصوف بالجمع بين المثالية المكانية والزمانية والسكانية، كان **أبناء أبي سيف** الكنتيين مأخوذين بجاذبية **الحضرتين** الصوفيتين، الحضرة الأم في الشرق؛ حضرة **أهل الشيخ سيدي المختار الكنتي** بأزواد، وفرعها: حضرة **أهل الشيخ سيدي** في غرب بلاد شنقيط، حيث استقطبتا معظم رجال أهل الطالب اعمر بن خيري وغيرهم من البوسيفيين، طلبا -هنا وهناك- لتعزيز **"المقاومة الأخلاقية"**، حفاظا على **المكان، والمكانة** في ظل التغير الزاحف؛ حيث إن هذه **"المقاومة الأخلاقية"**، التي نتصدَّى هنا لتجلية مفهومها، واستعراض تجلياتها، بحاجة إلى عملية تنشئة وتربية معقدة ومعمقة، قد لا يكفي فيها المجهود الفردي، الذاتي، في مجاهدة النفس، وتعديل سلوكها، وفق مرجعية الشرع، ومنظومة الأخلاق المرغوبة، ومسطرة الأعراف الفاضلة المتوارثة، بل قد يكون لابد فيها من **"إرشاد السالك إلى أقوم المسالك"**، وهذا - في حد ذاته- عنوان كتاب للشيخ سيد محمد بن الشيخ سيد المختار، (جم الفوائد، وهو **في مقامات السلوك**، ومنازله، رتَّبَه مُؤلِّفُه على ثلاثة أبواب، كل باب في ثلاثة فصول، وصل فيه مؤلفه آخر الفصل الأول من الباب الثاني.

وسبب تأليفه مكاتيب تكررت من مريد المؤلف: **مُحمد بن سيد الأمين** بن مُحمد بن الطالب اعمر بن خير **البوسيفي**)[1].

وهو كتاب يشبه مؤلف الشيخ سيد محمد الآخر: **"جنة المُريد دون المَريد"**، الذي ألفه للشيخ سيدي، لذات الغاية السلوكية، الداخلة في صميم **"المقاومة الأخلاقية"**، والتسلح التربوي في مواجهة نزوات النفس، ومكائد الشيطان.

وإذا كان الأستاذ **هارون** بن الشيخ سيدي يرجع كثرة توافد رجالات **أهل الطالب اعمر بن خيري** على حضرتهم، بقوله: (ومما تقدم من ذكر رجال أهل الطالب اعمر بن خيري المذكورين، **وتتابعهم على الشيخ سيدي** ترى مدى تأثرهم **بسابق ألفة محمد بن سيد ألمين معه**، زمنهما عند **الشيخ سيدي محمد** بن الشيخ سيدي المختار، رحم الله السلف، وبارك في الخلف)[2].

فأنا أري -على غرار هذا الرأي- أن **محمد "ويقي" بن سيد الأمين**، كان أيضا قطبا جاذبا لرجال أسرته، إلى الحضرة الأم؛ حضرة أهل الشيخ سيدي المختار الكنتي، في أزواد؛ فهو من صفوة تلاميذِ الشيْخ الكبير: سيدي المختار الكنتي، وابْنِه: الشيخ سيدي مُحمد الخليفة، حيث كان يشَكِّلُ مع الشيْخ سيديَّ الأَبَيْرِي، فرَسَيْ رِهانٍ، في تلك الحضْرة، علْما، وشِعْرا، وخُصوصِية لدَى مَشايخِهم هناك،[3]، وقد زوجه شيخه بزينب كريمته الوحيدة، ويقال: إن أهله أولاد بوسيف

---

[1] - الجزء الخاص بكنته من **"الأخبار"**، ص 70.

[2] - نفسه؛ ص121.

[3]- فسيد البكاي بن الشيخ سيدي محمد، يعترف بأن الشيخ سيدي هو من يقرئه، وويقي هو من يذاكر له، انظر: هارون بن الشيخ سيدي: كتاب **الأخبار** (المدون)، ج1، تحقيق ونشر: باب بن هارون، ط2، نواكشوط، 1999م، ص 143، وهو نفسه يصفهما في مستهل رساله إليهما في الصفحة ذاتها: (إلى السيد المبجل، والأخ المفضل، ذي المجد المؤثل، والفخر المعجل والمؤجل، صاحب الأسرار: سيدي بن المختار، والأخ الأروع، والدواء الأنجع، ذي الشرف المتين المكين، والمجد الأصيل المبين: سيدي محمد بن سيدي الأمين).

وعن اشتراكهما في درجة الخصوصية، يرد الشيخ سيدي محمد بن الشيخ سيدي المختار، على ابنه وخليفته "بادي": (الشيخ سيدي المختار الصغير)، حين سأله عمن يجوز له أن يطلع على بعض =

هنا ساقوا إليه في أزواد كثيرا من الإبل مهْرا لها، ويروى أنه ذات يوم-والعهدة على الراوي- أخبر الشيخ سيد محمد أنه **رأى في المنام** أن الشيخ متربع على **رأس شجرة** عظيمة عالية، وأن التلاميذ يحاولون الطلوع إليه في القمة، ولم يستطع الوصول إليه إلا هو، فكان تأويل رؤياه -في نظر الشيخ- أن **الشجرة الطريقة**، وصعودها هو **مدارج السالكين**، وأن **قمتها هي القطبانية**، ولا يشتركها اثنان، فبادره تلميذه محمد **"ويقي"** بن سيد الأمين، إذن أنا الذي سأموت، وبسط عليه رداءه، وفارق الحياة، والذي يهمنا من هذه الرواية العجائبية، هو إيحاؤها بأن هذا العبقري البوسيفي قد بلغ في الصوفية - حسب تأويل شيخه- أقصى ما يسعى إليه المريدون، ومع ذلك لم ينل من الشهرة العامة ما ناله، قرينه الشيخ سيدي، ولا حتى أخوه الأصغر **آدب**، وقد نظم سلسلة مشايخ الطريقة القادرية، نظما جيدا، يستهله:

الحمد لله الذي من اتصلْ ... بحبْله المتين لا بد وصَلْ
مبتدئا بغوْث هذا الوقْتِ ... مُعْتَصِما من مُوجِبات المَقْتِ
أَخَذَ شيْخُنا الإمامُ الأَمْجَدُ ... غوْثُ الوُجودِ سيِّدي مُحمدُ
عن شيْخِه، والدِه: المُخْتارِ ... غوْثِ الورى، قطْب رَحى الأخيار

ويعلق عليه الأستاذ هارون بن الشيخ سيدي بقوله: (شرحه والدنا الشيخ سيدي محمد بن الشيخ سيدي شرحا نفيسا وعندنا نسخة من هذا النظم جيدة كتب الشيخ عند انتهائها ما لفظه: "استكتب هذا النظم لنفسه ثم لمن شاء الله بعده عبد ربه سيدي بن المختار بن الهيب كان الله للجميع بمنه وكرمه ولياً ونصيراً امين"[1].

وقد تقاسم شعره التعلق بحضرة أشياخه في أزواد، والحنين إلى منطقة **"أگان"** جنة مواطن أهله، وربع عَزّتِهم وعِزَّتِهم. حيث يقول من الكامل:

= الأسرار المكتوبة لديه، قائلا: (إنما ينسخه من إخوانك التلاميذ الخاص منهم، كرفيقيك، و"سيدي" و"محمد بن سيدي الأمين"، ومن في طبقتهم"، المصدر نفسه، ص 146.

[1]- هارون بن الشيخ سيدي: **الأخبار** "المدون" الجزء الخاص بكنتة، ص 95.

صَــبٌّ لنَــأْيِكُمُ جَفَــاهُ هُجُوعُــهُ ... تُحْنَــى عــلَى جَمْــرِ الغَــرَامِ ضُــلُوعُه
أبَــدًا هَــوَاكُمْ فِي سَــوادِ فُــؤادِهِ ... يَجْــرِي، فَيْجِــري بالــدُّمُوعِ نَجِيعُــهُ
ويَــدُومُ كــتْمانُ الغَــرامِ، ودَمْعُــهُ ... مُغْــرًى بمَكْتُــومِ الغَــرَامِ يُذِيعُــهُ
يَبْكِــي عــلَى زمَــنٍ تَــقَضَّى بــالمُنى ... بَــيْنَ الأحِبَّــةِ عامُــهُ أسْــبُوعُهُ
هُــوَ كُلّــهُ زَمَــنُ الرَّبيــعِ: مَصِــيفُهُ ... وخَريفُــهُ وشــتَاؤُهُ ورَبِيعُــهُ
يــا قَاتَــلَ اللهُ النَّــوَى فَهْــي الَّتِــي ... قــد حَمَّلَتْنِــي فــوْقَ مــا أسْــطِيعُهُ
لم يَبْــقَ مِنِّــي غَــيْر قلْــبٍ هــائمٍ ... وَحَشى لِهَيبُ لَظَى الغَرامِ ضَحِيعُهُ
وجَــوانِحٌ تَــنْفَضُّ مــنْ فَــرْطِ الأسَــى ... وقَــريحُ جَفْــنٍ، لَا تَجِــفُّ دُمُوعُــهُ
نَقَضَتْ عُرى صبْري الهُمومُ، ولم يزل ... قلْبــي لفــرْقتكمْ مَرُوعًــا رُوعُــهُ
حَــالَ الأسَــى مَــا بَيْنَــهُ وسُرُورَهُ ... وانْفَــلَّ عنْــه مــن العَــزَاءِ جُمُوعُــهُ
مُــذْ حَــالَ مَــا بَيْنِــي وبَــيْنَ أحِبَّتِــي ... ورُبُــوعِهِمْ مِــنْ أجْــرعٍ وَرُبُوعُــهُ
وشِــفَاءُ مــا بِي مــن طَوِيــلِ بِعــادِهِمْ ... رَمَــلٌ يُقَــرّبُهُمْ إلَيَّ سَريعُــهُ
يَطْــوِي بَسِــيطَ البِيــدِ دُونَ أحِبَّتِــي ... يَعْلُــو فُــؤَادِي بالمَدِيــدِ وُلُوعُــهُ
إنْ رُمْــتُ ســلْوَانًا أتَــى مُسْتَشْــفِعًا ... مِــن وُدِّهِــمْ مَــا لَا يُــرَدُّ شَــفِيعُهُ
لــوْلا التَّعَلُّــلُ باللِّقَــاءِ لَمَوْعِــدٍ ... مُتَحَقّــقٍ إنْجــازُهُ ووُقُوعُــهُ
مِنْ شيْخِنا، الغوْثِ، المُجَدِّدِ، مَنْ بــه ... رُشْــدِي، ومَــنْ أمْــرِي إليْــهِ جَمِيعُــهُ
لَتَمَزَّقَتْ مِنِّي الحَشَى، ولَضَاقَ مِنْ ... حُــزْنِ، عَــلَيَّ مِــنَ الفَضَــاءِ وَسِــيعُهُ
فعَسَــى يُــتَمِّمُ بــالتَّلَاقِي أنسَــنَا ... رَبٌّ مُجِيــبٌ للــدُّعَاءِ سَــمِيعُهُ
ويُقِــرُّ نَظْــمُ الشَّــمْلِ عَيْنَــيْ مُغْــرَمٍ ... صَــبٍّ لِنَــأْيِكُمُ جَفَــاهُ هُجُوعُــهُ"

وله يخاطب شيخه الشيخ سيدي محمد الخليفة بن الشيخ سيدي المختار الكنتي في سينية من الطويل:

ألا ليت شعري، هل أُدَالُ على نفْسي ... وجُنْدِ الهوى المُغْوِي، وَشيْطانيَّ الرِّجْسِ؟
وهل ظلماتُ القلْبِ تُكْشَفُ بالسنَى ... وهلْ كُدُرَاتُ النفْس تُنْسَخُ بالقُدْسِ؟

وهل حَرُّ نَارِ الفصْل، بالوصْل، ينطفي ... وهل وحْشةُ الإبْعادِ تُبْـدَلُ بـالأُنْسِ؟
لـئنْ دامَ حـالي في الفسـاد كـما أرى ... لقد خِبْتُ في المَحْيَا، فما الظَّنُّ بالرَّمْسِ؟
أرُوحُ، وأغْـدُو في البطالَـةِ جاهـدا ... وصـحْبيَّ جَـدُّوا في مُجَاهَـدَةِ الـنفْسِ
أقـاموا جِـدَارا للسُّـلوكِ نَقَضْـتُهُ ... فبِالكَنْزِ همْ فازُوا، ولم أحْـظَ بـالفلْسِ
وأفْنَيْتُ، في التسْويفِ، عُمْري سبَهْللا ... أرُوحَ، كما أغْدُو، وأغْدُو، كما أُمْسِي
وعزْمـيَّ محْلـولٌ، ونـوْميَّ سَرْمَـدٌ ... ويوْميَّ خيْرٌ منْـهُ، فـيما أرَى، أمْسِـي
ولـولا وُعـودٌ صـالحاتٌ تقـدَّمتْ ... قد أوْدعَها أسْتاذُنا الغـوْثُ بـالطِّرْسِ
ورحْمـةُ موْلانـا التـي عمَّـتِ الـورى ... لأصبحْتُ، من رَوْحِ الإلهِ، على يـأْسِ
فيـا هِمَّـةَ الغَـوْثِ المُعِينَـةِ دَارِكِـي ... رهينَ هـوًى أهْـوَاهُ في هُـوَّةِ الـبخْسِ
إذا رامَ بـــالله العَـــلِيِّ تَعَلُّقـــا ... يُجاذبُـه مـا كـانَ بـالإلْفِ للعكْـسِ
ومـا ظـنَّ يوْمـا بعْـضَ أدْوائـهِ غَـدَا ... عـلَى ثِقَـةٍ إلا وأمْسَـى عـلى نُكْـسِ
فيـا شـيْخَنا أسْـتاذَنا ومَلاذَنـا ... ويا فارجَ الغُمَّى، ويَا كاشِـفَ اللـبْسِ
أغثْنـي، ولا تنْسَـى الإغاثـةَ سـاعةً ... فمِـثْلِيَّ يُـرْدَى الآنَ إنْ غوثـهُ أنْسِـى
ورُضْ هذه النفْسَ الجَموحَ، وزَكِّها ... وكُنْ، دُونَ شيْطاني، وجُنْدِ الهوى، ترْسِي
وقوِّمْ جِدَارِي، يَا عِـمادي، فقـدْ غَـدَا ... سُـلُوكِي مُـنْقَضَّ الجِـدَارِ مِـنَ الأُسِّ
ورَبَّـكَ فاسْـتوْهبْ عُبَيْـدَكَ ذَا الـذي ... قد اشْفَى، بما تجْنِي يَداهُ، عـلى الـتعْسِ
أشَـيْخِيَّ نـيرانُ القطيعـةِ مَزَّقـتْ ... حَشايَ، ومنْها ازْدَدْتُ بُؤْسا، على بُؤْسِي
فهل مـن شرابٍ مـن مَشـاربكَ التـي ... شربتَ بها، من حضْرةِ القُدْسِ، بالطَّسِّ؟
وهـل تُـدْرِكُ العبْـدَ الـمُسِيءَ عِنايـةٌ ... فتُبْلِغـهُ مـنْ كَفِّكُـمْ دَوْرَةُ الكـأْسِ
فإنْ... بالحِرْمانِ مَـعْ وسْـعِ جُـودكمْ ... وتعْميمكمْ للخيْرِ، في النّدْبِ والحبْسِ
وطُـول عُكـوفي في وَريـفِ ظِلالكـمْ ... لَذلكَ أدْهَى مـا يكـونُ مـن الـنحْسِ
نَعَمْ، عَاقنِي عن حاجتي عظْـمُ زلَّتـي ... ومَـيْلِي لِحَظِّـي، والرُّكُـونِ إلَى الجـنْسِ
ولكـنَّ مَـنْ يعْلـقْ بغَـرْزِ خَلِيفَـةٍ ... كشيْخِي، مُرَبٍّ، واصلٍ، كامـلٍ، نُـدْسِ

يفــوز بــأعْلاقِ السَّــعَادَةِ والمُنَــى ... ويرْعَى رياضَ الأُنس، في حضْرة القُدْسِ
ومــن ظُلَــمِ الأَدْرَانِ يُبْــدِلُ قلْبَــه ... بشمْسٍ منَ العِرْفانِ تُزْرِي على الشـمْسِ
ويخْــتم بالحُسْــنى لــه بعْــد عِيشــةٍ ... بِذي الدَّارِ، عيْش الطيِّبِ الأشْرَفِ النفْسِ
وثــمَّ صَــلاةٌ شُــفِّعَتْ بتَحِيَّــةٍ ... على المصطفى السامي به شرَفُ الخُمْسِ
وآلٍ، وصــحْبٍ، بالصــوارمِ والقَنــا ... أَبَادُوا جُمُوعَ التُّرْكِ، والرُّومِ، والفُـرْسِ

فأجابه شيخه الشيخ سيدي محمد بن الشيخ سيد المختار، محتفظا بالبحر نفسه والروي:

هنيئا لكَ الإسْعادُ بالأنْسِ، والقُـدْسِ ... ودامَ لكَ الإسْعافُ في الغَدِ، والأمْسِ
لئنْ راضَ مَنْ للـنَّفْسِ هضْـمًا غبَطْتَـهُ ... بسوْطِ اخْتلاءٍ، قاهرا سَـوْرَةَ الـنَّفْس
لقد رُضْتَها بـالخمْسِ مـن غـيْرِ ريبـةٍ ... تحوش إلَى خمْسٍ، وتَظْلِفُ عـنْ خَمْـسِ
فإنْ شئْتَ سَدِّسْ فَتْلَهـا ولكـمْ عنَـي ... بخمْسٍ من اسْتَعْلَى علَى فَلَكِ الشَّمْسِ
فعند ابْتِسامِ الصُّبْحِ يَحْمَدُ ذُو الـسُّرَى ... سراه بــديجور المجنحــة الطلــس
وقــارعُ بــابِ المالِــكِ الحــقِّ فــائزٌ ... بما حوْلَـه مـن وافـرِ الـرِّبْح واللقْـسِ
سيسقيكَ مـن صـفْوِ المعـارفِ خمْـرةً ... مُعَتَّقَــةً بالكــأسِ طــوْرا وبــالطَّسِّ
وأحْبُوكَ مـن كنْـزِ الوِصَـالِ بجـوْهرٍ ... نَفيسٍ به تسْمُو عـلَى مرْكـزِ الكـرْسي
ويغْبطــكَ الأُلى غبَطْــتَ وتكْتســي ... ملابــسَ أنْــواءِ المَهابــةِ والأنْــس
وترْتــع مــن روْضِ العِنايــةِ مَرْتَعــا ... تَنافَسَــه قــوْمٌ ثَــوَوا حضْــرةَ القُــدْسِ
وتَعْــرجَ مِعْراجــا بــه يَــدَنِّي الفَتــى ... ويرْقى إلى عرْسِ الخُروجِ مـن الحِـسِّ
وتلْــثم أرْكــانَ الــدُّنُوِّ مــن الفَنــا ... وتشْـرب من صـفْوِ المَحبـةِ بالكـأسِ
وتــذْبح أهْــداءَ العوائــد ناســكا ... بمَنْسِكِ تَنْسِيكٍ منَ البُـؤْسِ واليـأسِ
وتشْــهد أسْرارَ الشُّــهودِ مُعانِقــا ... عرائسَ كشْفٍ ما خَرَجْنَ عن العُرْسِ
فتُصْــبحَ مــن صِرْفِ المَواجِــدِ فَانيــا ... عن الكوْنِ محْفوظَ الوجودِ، كما تُـمْسِي
وتمْلــك مُعْتــزا بعِــزَّة ذِي السَّــنى ... نــواصِيَّ أرْواحِ البَســائطِ والإِنْــسِ

فتخْفـق أعْـلامُ الخُصُـوص لوائحـا ... بمَشْهَدِ دُولابِ الخُصُوصِ بَلا طمْسِ
وتشْـهد أرْبـابَ البَصـائرِ شَمْسَـها ... وتفْصِـح بالتصْـديرِ أَلْسِـنَةُ الخُـرْسِ
فتشْـكر ذَا النّعْمَـى دَوامـا مُصَـلِّيا ... على شمْسِ أفْلاكِ الهُدَى، غُرَّةِ الخُمْس
وآلٍ، وصحْبٍ، أَلْبَسُـوا الـدِّينَ لَأْمَـةً ... دِلَاصًـا، وَرَصُّـوهُ عـلى ثابـتِ الأُسِّ

وقد استقطب محمد "ويقي" إلى الحضرة الكنتية عمَّه:

المختار ولد أحمد، الذي لا ندري حقيقة هل هاجر ببدنه إلى الحضرة المختارية، الكنتية، لكننا متأكدون أن روحه وهِمَّته وقصيدَته يَمَّمَتْها، حيث قال من البسيط مادحا مشايخها:

أبْدَى منَ الشَّوْقِ ما قدْ كُنْتُ أَخْفِيهِ ... وكنْـتُ أزْعُـمَ أنْ لا شيْءَ يُبْدِيـهِ
أني مـررتُ عـلى ربْـع عهـدْتُ بـه ... أسْـماءَ، لا بـرِحَ الوسْـمِيُّ يسْـقيهِ
عهْـدِي بـه، وظِبَـاءُ الإنـس تَقْطُنُـه ... واليوم صارت ظباءُ الـوحْشِ تُحْيِيـهِ
كأَنَّـه مـا مشـتْ -مَيْسًـا- مُنَعَّمَـةٌ ... جَيْدَانَةٌ، كقَضيـبٍ، نـاضِرٍ- فيـهِ
وَلا تَجَلْبَـبَ، بالأزْهـار، يانعـةً ... ولا تبسَّـمَ رَوْضٌ، فِي أعَالِيـهِ
جادتْ، عليْهِ-مـن الـرحمن- سـاريةٌ ... مـن الودائـقِ، تجْـرِي فِي نَواحِيـهِ
لمـا وقفـتُ، سَـوَاءَ الربْـع، مكتئبـا ... حـيرانَ، ذا زفـرات، فقْـدَ نادِيـهِ
آلى فـؤاديَّ: لا ينفـكُّ مُحْتَرِقًـا ... وأقْسَـمَ الجَفْـنُ: لا تَرْقَـى مَآقِيـهِ
نادٍ -به- أنستْ روحي، كـما أنسـتْ ... روحُ المغيـث بمَـوْلاهُ، يُناجِيـهِ
خليفـة المصـطفى، حقـا، ووارثـه ... شيخ المشايخ، شـمْس الـدين، مُحْيِيـهِ
حـازَ الوَلايَـةَ طـرًّا، في صِـباهُ، وقـدْ ... فـاق المشـايخَ، لا شَـيخٌ يُبَارِيـهِ
نَاجَى، وشَاهَدَ منْ يَهْوَى، بِلا حُجُبٍ ... فازْدادَ ما كـانَ -بـالنَّجْوَى- يُقاسِـيهِ
أهْـدَى أناسـا، وأوْدَى آخـرين، فـإنْ ... تعجـب؛ فـذاكَ كثـيرٌ، في مُرِيدِيـهِ
كهْفٌ من الخوْف، إذ من كـل ناحيـةٍ ... يـأتي، وإذْ منـعَ الـذْ كـانَ يُجْرِيـهِ
كَـفُّ الغَـمَامِ، فهُـو بحْـرٌ، لـه مَـدَدٌ ... يجـري عـلى الخلـق؛ دانِيـهِ، ونائيـهِ

تبـــارك الله؛ لا تحصـــى مناقبـــه ... عمَّتْ، على الكلِّ -بالنعْمَى- أيادِيهِ
ثـم الصـلاة، عـلى مـن هـو وَارِثُـهُ ... من لم يكن، في العلا، شـخص يدانيـهِ

وهناك من العائلة نفسها: **أحمد بوه بن محمد بن أحمد بن الطالب اعمر بن خيري**، ابن أخي المختار بن محمد الآنف الذكر، حيث يقول (من البسيط) متعلقا بـ **"أگان"** موطنه، في المقدمة الآنفة الذكر، ومتخلصا إلى التشوق لحضرة أهل الشيخ سيد المختار:

يـا بـرْدَ مـا هـبَّ مـن نحْـو الأحِبَّـاءِ ... من ناسمٍ دبَّ في صدْري وأحْشـائي!
هبـتْ عـليَّ نُسـيْماتٌ.. تُجَـدِّدُ لي ... ذكْـرَ الأوِدَّا، فمـنْ لي بـالأوِدَّاء؟
واليومَ أرْغَبُ عـنْ ذاكَ الشـرابِ إلَى ... ...مـن ديمـةٍ بالـشرْقِ هطْـلاءِ
شـاقتْ بوارقُهـا العيْنـيْنِ لائحـةً ... حـوْلَ الخليفـةِ مِـنْ مسـقى المُلَيْسَـاءِ
هـو الخليفـةُ، لا ريْـبٌ، مُحَمَّـدُنا ... نجْـلُ الخليفـةِ مـن خـيْر البَراسـاءِ
كادتْ تميـدُ، فأرْسـاها القواعِـدَ مـنْ ... ديـنِ الإلـهِ -تعَـالى- أيَّ إرْسـاء
وأضْرمتْ فرْقةُ الغوْثِ المُغيـثِ لظَـى ... مـنْ كُـلِّ قلْـبٍ صـحيحِ الـوُدِّ فـرَّاء
فشـمّرَ الطِّـرْفَ عـنْ جِـدٍّ وبَادَرَهـا ... كالغيْـثِ، جـاءَ بـإبْرادٍ، وإطْفـاءِ
لاذتْ بهِ النَّاسُ، إذْ ضاقَ الخِنَاقُ كـما ... لاذت بشـاهقةٍ أبْنـاءُ عصْـماءِ
يا طِيبَ سَعْدِ بني الكُنْتِـيِّ إذْ خَفَقـتْ ... أعْـلامُ رُتْبَتِـه مـنْ غـيْرِ إخْفَـاءِ!
ويا صَـباحَةَ وجْـه الـدَّهْرِ، إذْ بَزَغَـتْ ... أقْـمارُ طلْعَتِـه في كـلِّ ظلْـماءِ!
تبـاركَ الله، كـمْ أعْليْـت مُتَّضِـعا ... إلى مَقامَـةِ عِـزٍّ منْـكَ عَلْيَـاءِ!
وأزْمَـة خَرَّبَـتْ، عظْمُـى، وَداهِيـةً ... أزَلْتَ، عن مَعْشَـرِ الإسْلامِ، شـنْعاءِ!
ومُعْضِلٍ من ذَوِي البَلْـوى ومُشْـكلةٍ ... غادرْتَهـا كبُـدُوِّ الصـبْح، عمْيـاءِ
ورِثْتَ ما لمْ يَـرِثْ فـيما مضـى بَشَـرٌ ... ونِلْـتَ مـا نِلْـتَ مَصْـحوبًا بـإعْلاءِ
فـما لِمَـا أنْـتَ مُعْطِيـه، ومَانِعُـه ... في الله، لله، مِـنْ مَنْـعٍ، وإعْطَـاءِ
ولا لِمَـا أنْـتَ مُدْنِيـه، ومُبْعِـدُه ... للبـابِ، أوْ عنْـه، مـن بُعْـدٍ، وإدْنَـاءِ

إنِّي إليْكَ -فخذ يا منتهي أملي- أشْكو، وأرْجو، منَ الرحْمن، إشْكائي
أشْكُو بِطَانَةَ سُوءٍ، مَنْ أُعِدُّ لَهَا أنتمْ، وحسْبي بكمْ من دفْع أسْوَاءِ
ولمْ أكُنْ لأرَى، مُذْ كنُت، مقتَضِيا من ذِي الخليقةِ، مَأمُولًا لحوْجاءِ
إلا إليْكمْ، ومِنْ راحاتِ غيْركمُ لا أستطيبُ -ولوْ ظمْآن- إسْقائي
إني لدانٍ، ولو نَاءٍ، أرَى ، فعسَى .....
أشهْى، وأطيْبُ تسْليم، كمَا أَرِجَتْ مَباسِمُ الروْضِ، مَمْطورًا بصحْراءِ
منِّي أسَلِّمُ أضعافَ السلام.. لمنْ يُنْمَى لأطْيَبِ أمَّاتٍ وآباءِ
مُحَمَّد، خيْرِ منْ حُزْنا ببعْثتِه عِزًّا، وأصْحَابِهِ الشُّمِّ الأعِزَّاءِ

وفي الاتجاه المقابل استقطب ويقي أيضا إلى حضرة الشيخ سيدي الانتشائي صديقه، و توأمه الروحي، والعلمي، بعض رموز أسرته؛ مثل:

محمد بن المختار بن احمد بن الطالب اعمر بن خير، الذي قال عنه الأستاذ هارون بن الشيخ سيدي: إنه (سكن مع الشيخ سيدي، وصحبه، وأحبَّه، ولما أراد المسير عنه قال فيه هذه القطعة الرائقة التي نظمها على الكامل:

عاشَ الفِرَاق حَلِيفَ عيْشٍ أنْكدِ واسْتبدَل... الاسيف من الدَّدِ
وغدا الغدُ الآتي عليه بما به وَعَدَ الأحِبَّةَ فِي غدٍ مِنْ مبْعَدِ
كمْ صَيَّرَ الأشْفاعَ أوْتارًا، وكمْ عيْشٍ هَنِيءٍ عاضَهُ بالأنْكَدِ
وكَم اقْتَضى بقضائه كوْنَ الفتى بِحبِيبِه في حيْرَةٍ وتَرَدُّدِ
إنَّ انْتظارَ قضائِهِ لأَحِبَّتي أفْنَى تَحَمُّلِيَ الأذَى، وَتَجَلُّدِي
وأَعَارَنِي سَفْعَ الجوانح، والحَشا بحَريقِ حُزْنٍ في الفؤادِ مُوَقَّدِ
وَلُزُومُ نفْسِي حَالَةً مَقْسومَةً لِتَفَكُّرٍ، وَتَنَمُّرٍ، وَتَنَهُّدِ
فَتَوَقُّعُ التفْريق أقْطعُ للحَشا وأمَرُّ مِنْ وقْع الفِراقِ المسْنِدِ
ولذا رفعتُ يدَ الدُّعاءِ عَلى غَدٍ ظرْفِ الفراقِ بقوْلِ أقْصَدِ مُنْشِدِ:

"لَا مَرْحَبًـا بِغَـدٍ، ولا أَهْـلا بـه إنْ كـانَ تفْريـقُ الأحِبَّـةِ في غَـدِ"[1]

ورغم أن الأستاذ **هارون** لم يصرح بتلمذته على **الشيخ سيدي**، وإنما قال: إنه "سكن معه، وصحبه، وأحبه"، فإنه عندما رجع **لأولاد بوسيف** كان **مرجعيتهم الروحية**، ومركز مشيختهم، وعليه تتلمذ ابنُ عمه: **عبد القادر (آدب)** بن سيد الأمين، قبل التحاقه **بالشيخ سيدي**، وعندما شعرت جماعة **أولاد بوسيف** بالفراغ الروحي، بعد وفاته، أرسلت إلى **الشيخ سيدي** تطلب منه أن يرسل إليهم تلميذه المقرب: **محمد بن أحمد الصغير البوسيفي**، معللين ملتمسهم بقولهم: (فإن الحاجة إليه شديدة لوفاة **أخيكم محمد بن المختار**، وغيره من أهل السياسة والأنوار... فاعزموا عليه بتعجيل المسير، وعدم التأخير، لنتخذه خلفا من السلف)[2]، وهنا أيضا لم يصفوه للشيخ سيدي إلا بأنه أخوه...

كما استقطب **"ويقي"** لهذه الحضرة شقيقه: **الشيخ بن سيدي الأمين**: الذي أورد له الأستاذ **هارون** رسالة وجهها **للشيخ سيدي** يُشَخِّصُ له فيها حالته الصحية ظاهرا وباطنا، سنُوردها لاحقا، ونكتفي هنا بـقصيدة يقول هارون إنه فيها يمدح شيخه أبا الأنوار الشيخ سيدي بن المختار، ويستعطفه ويتوجع على فراقه (البسيط):

يا ليت شِعْريَّ هل أَلْفَـى عـلى عَجَـلِ أرَتِّبُ السـيْرَ مـن قبْـلِ انْقِضـا أجَـلي
أطْـوي الفيـافي عـلى عَيْرَانَـةٍ أُجُـدٍ تسْخُو عَلَى الأيْن بالتقْريـبِ والرَّمَـلِ
إلى الهُـمامِ إمـامِ الوقْـت سَـيِّدِنا "سِيديَّ" ملْجَئِنا في الحـادثِ الجَلـلِ
جَـلَّاءُ أصْـداءِ مِـرْآة الفـؤاد إذا حِيكـتْ عليْـه ثيـابُ الـرَّيْنِ بالزَّلـلِ
مَـنْ خَصَّـه الله بالتقْريـبِ كـلَّ أنًـى والعِلْم والجُـود والإحْسـان والعَمَـلِ

---

[1]- مسودة الجزء الخاص بكنتة من **"الأخبار"**، ص 113، والكسر الموجود في وزن الشطر الثاني من المطلع موجود في المصدر.

[2]- نفسه، ص 119.

واخْتصَّــه بكــمالاتٍ، يضــيقُ بهــا ... ذرْعُ المقالــةِ، بالتفْصــيلِ، والجُمَــلِ
أوْلاهُ مــوْلاهُ نُــورا لــوْ بــدا لغــدا ... نورُ الشموس، له، والبدر، في خَجَلِ
ورُتْبــة لم تَــزُلْ تعْلــو بأخْمِصِــها ... ذُرَى الثَّرَيَّــاءِ واليَــافُوخَ مــنْ زُحَــلِ
حتــى أفــوزَ بحظِّــي مــن زِيارَتِــه ... ومــن مُجــاوَرَةٍ تشْــفي مــن العِلــلِ
وأرْتَــوِي بتَــحسِّي راحِ راحَتِــه ... كيْ أسْــتريحَ مــن النقْصــانِ والخَلــلِ
وتــنْجَلِي ظُلَــمُ الأهْــواءِ عــنْ خَلَــدِي ... والبُعْد، لا زالَ كفُّ البُعْــدِ في شَــلِلِ!
واعْلَمْ- وإنْ كنْــتَ ذا عِلْــمٍ، وذَا نَبَــهٍ ... يا سَــيِّدي- أنَّنَــا في الضِّــيقِ، والثقَــلِ
ولــيس ذلــك إلَّا مــنْ فِــراقكمُ ... فهْو المُكــدِّرُ صــفْوَ العــيْش، يــا أمَلِي
لا يُمْسِكُ الــرُّوحَ فينــا بَعْــدَ غيْبَــتِكمْ ... إلا التَّعَلُّــلُ باللُّقيــا عــلى عَجَــلِ
وأن عبْــــدَك هــــذا... ثبَّطَــــه ... شؤم الذنوبِ، وفرْطُ العجْز والكسَلِ
فــادَّارَكِ الرَّمَــقَ البــاقي بنــا عَجِــلا ... فالعُودُ ذو اليــبْس لا يَــخْضَرُّ بالبَلــلِ
فــاللهَ نَسْــأَلُ أنْ نَحْظَــى بمُجْتَمَــعٍ ... بالبُرْدِ -مِنْ كــلِّ مَــا سَرَّاءَ- مُشْــتَمِلِ
وحقــــقَ الله آمــــالا نُؤمِّلُهــــا ... فــيكمْ وحقَــقَّ مــا أمَّلْــتَ مــنْ أمَــلِ
فهُــوَ الــذي يَهَــبُ الإحْســانَ أجْمعَــهُ ... للعبْــدِ إنْ ســالَه، أوْ هُــوَ لمْ يَسَــلِ
بجــاهِ خــيْر عِبــادِ الله كُلّهــم ... طــه المشــفع فينــا خــاتمِ الرُّسُــلِ
عليــه، والآلِ، والأصْــحابِ كُلِّهــم ... أزْكى الصلاةِ معَ الإبْكــار والأصُــلِ
مَــا حَقَّــقَ اللهُ آمــالا يُؤمِّلُهــا ... عبْدٌ -من الذنْب والتقْصيرِ- في وَجَلِ[1]

أما **آدب الأخ الأصغر لـ "ويقي"**، ووريث سره وأسرار أخوته الآخرين، وعائلته جمعاء، فقد **استقطبته الحضرة القادرية الغربية** نفسها، فالتحق **بالشيخ سيدي**، وتصدَّرَ منها بإجازة نثرية، وأخرىٰ شعرية، وله أيضا رسالة وجهها إلىٰ شيخه، يلخص فيها أهم الأخلاق التي يطمح لكسب نقائضها الفاضلة علىٰ يد

[1]- مسودة الجزء الخاص بكنتة من **"الأخبار"**، ص 108- 109.

تربية شيخه، وقد ذيل إجازته الرسمية، بتزويده بالنصائح الضرورية للارتقاء الروحي إلى الأفق المرغوب، كما سنرى لاحقا.

أما **سيدي ولد آدب**، تلميذ والده، فقد ولى وجهه شطر **حضرة أهل الشيخ سيد المختار الكنتي**، في إقليم أزواد بجهورية مالي حاليا، حيث وجدنا له قصيدتين سجلتا رحلته لمنبع مرجعيته الروحية الصوفية هناك، إحداهما سماها -أو سميت-: **"الأنوارية"**، نسبة لـ "بَلَنْوَار" موقع الحضرة، وربما عنى بـ **"أبي الأنوار"** الشيخ نفسه، لأن إشعاعه العلمي والروحي والفكري طبَّقَ الآفاق، يستهلها بقوله: بقوله من البسيط:

زارتْكَ.. وصْلا.. بُعَيْدَ الهجْر أسْحارا ... أسْـمَاءُ.. أهْـلا بهـا مـن زائـرٍ زارا
أهْلا بها.. كيف جابتْ- وهْيَ في شَحَطٍ ... لـيْلا.. إلى نحْونـا- فِيفًـا.. وأوْعـارا
وكانَ عهْـدي بهـا، والمَشْـيُ يُبْهِظُهـا ... بيْنَ الفَساطِيط، بـلْ لا تَطْـرُق الجـارا
هيَ التي غادرتْ - بالشَّجْوِ فِي خَلَدِي ... لَّمـا نـأتْ -لوْعَـةً- تُـذْكِي بـه النـارا
وصرْتُ -من بعْدِها- حيْرانَ، ذا جَزَعٍ ... حُزْنًا، وكنتُ -لدَى الهيْجاءِ- صبَّارا
مـا كـانَ أعْـذَبَ أيَّـامِ الوِصَـالِ لنـا ... وكمْ لنـا كـانَ وجْـهُ الـدَّهْرِ نضَّـارا!
أجْنِي ثِمَارَ الهـوَى، أيَّـامَ أقْطِـفُ مِـنْ ... روْض الأماني -رَضِيَّ البال- أزهـارا
أسْمَاءُ.. لا تحْسـبِي أنِّي هَجَرْتُـكِ.. لا ... مَا كنْتُ -أسْمَا-كـما تـدْرينَ- غـدّارا
ما القلبُ عنكمْ سَلا.. لكنْ تَأَنَّسَ. أنْ ... آنستُ -من نحو ذي الأنوار- أنوارا
حيـثُ المُتَـيَّمُ يسْـلو هَمَّـهُ طرَبـا ... وحيث يَنْسَى الغريبُ الأهْلَ.. والدارا
وحيـثُ كـلُّ امْـرِئ يَحْظَـى ببُغْيَتِـه ... ويَكْتَسـي مِـن ذُيـولِ النُّـورِ.....
وَحَيْثُ صِيدَتْ أوَابِـدُ العُلُـوم، وقـدْ ... رُدَّتْ شـوَاهِدُها؛ آيًـا، وآثـارا
وناهَـا -ثـمَّ- مـن يبْغِـي نفائسَـها ... وأُعْطِيـتْ حقَّهـا، درْسًـا، وأذْكـارا
وحيـثُ تنْقلِـبُ الأنْهـارُ أبْحِـرَةً ... وتستحيلُ البُحـورُ الضُّـخْمُ أنهـارا
وحيـثُ خـيْرُ الـورَى تمَّـتْ وِرَاثَتُـه ... وحفْـظُ سِـيرتِه فـيما بـه سـارا

وحيثُ يُنْقَى مَعِينُ القدْس من طـرَقٍ ... منَ الصَّدَا، والطَّخَـا، رَيْنـا، وأكْـدارا
وحيـثُ أدْبـرَ جـيشُ البُطْـلِ مُنْهَزِمًـا ... مِنْ حيث أقبـلَ جـيْشُ الحـقِّ جَـرَّارا
وحيـثُ أسْـلـمَ ذو الإغْـواءِ مُعْتَقِـدًا ... مِنْ بعْدما كـانَ -بالإسْـلام- مَكَّـارا
وحيثُ لا تـنْقضِي حيث المَكـارم لـوْ ... أفْنَيْـتَ عُمْـرَكَ.. واسْـتعرْتَ أعْـمارا

أما **القصيدة الثانية** فقد تبادلها مع **الشيخ سيد أعمر** بن الشيخ سيد محمد بن الشيخ سيدي المختار الكنتي والد العالِم **الشيخ باي**، صاحب **النوازل** المعروفة، حين هَمَّ بتوديعهم، والعودة لأهله ووطنه، فبادره مُضيفُه، يسْتبْقيه عندهم فترة أطول بقصيدة منها:

"سِيدِيَّ"، إنْ لمْ تُقِمْ طولَ الزمان بنـا ... فامكثْ.. هُنَا عِنْدَنا.. عَامَيْنِ.. أو عاما
أو نصْفَ عامٍ.. ولا نرْضَى بسـيْرِكَ ذا ... مـا لمْ تَعِـدْنَا.. بُعَيْـدَ السَّـيرِ.. إلْمامـا
فـإنَّكمْ صـفوةٌ، دون الأنـام.. لنـا ... وإخـوةٌ.. ويـدٌ.. نقْضـا.. وإبْرامـا
وجـيرةٌ.. وعشـيرٌ.. لا نُبَدِّلُـه ... ما سامَنا.. قَطُّ.. في اللَّأْواء.. إسْـلاما

فأجابه سيديا ولد آدب محتفظا بوزن البسيط وروي الميم:

قلبي... لذكْر أحبَّـاءٍ.. نـأوْا.. هامَـا ... بلْ كدْتُ.. مِنْ غيْرها.. لا أعْرفُ السَّاما
أحِبَّة.. منذ بانوا.. بنتُ عـن جَلَـدِي ... بل بنت..عن جسدي.. شوقا.. وتهياما
لما نأوا.. أضرموا.. في أضْـلعيَّ.. وفي ... قلبي.. وقُودَ سَعير الشوْق.. إضْراما
بل مـا سـلوتكمُ.. في نعمـة.. ولقـد ... يسلي-الأحبة- طيبُ العـيْش أقوامـا
إذ لا نعيم.. كـآل الشـيخ سـيدنا الـ ... ـمختار.. من أوْضَـحَ الإبْهـامَ إلْهامـا
أزْكـي البَرِيَّـةِ أعْراقًـا.. وَأعْـدَلِهِمْ ... قَسْما.. وأفْضَلِ مَنْ صلَّى، وَمَنْ صـاما
بـلى، وأجـودهمْ كفًّـا، وأقْـدَمِهِمْ ... في الحرْب.. والسِّلْم.. أسيافا.. وأقلاما

هذا مع أن له رسالة إلى الشيخ سيدي باب، يعتذر له عن وشاية بلغته عنه، ويعده بقافية بديعة ضاق عنها الصك حينئذ، ولم نجدها حتى الآن.

أما أخواه: محمد لحوار، والشيخ أحمد فالأول منهما اتخذ وجهة علمية، واستهوته محاظر **"أجيجبه"** المشهورة، بينما يقول الأستاذ **هارون** بن الشيخ سيدي (وقفت **للشيخ أحمد بن آدب** على رسالة، وأظنها موجهة إلى **الوالد الشيخ سيدي باب** لتأخر وفاته عنه وهذا نصها:

"بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله حق حمده صلى وسلم على نبيه وجنده والسلام عليكم على قدر علو مقامكم ومجده إلى **شيخنا الشيخ سيدي** من العبد الفقير الحقير الكسير الأسير: **أحمد بن سيدي عبد القادر** بن سيد الأمين.

أما بعد، سَيِّدِي، لازالت تهشُّ إليكمُ النِّعَم الجليلة، ويبشُّ ويَتَنَسَّمُ نحْوكمُ نسيمُ السعْد ويتجسم، ويتوسَّم وجُوهكمُ ناظرُ الودِّ ويتبسَّم،

فاعلم، سَيِّدي -وإنْ كنْتَ الغَنِيَّ عن الإعلام، بما أطلعكَ الله عليه من خفايا الأنام- أنِّي، وإنْ عاقت العوائقُ عن القدُوم، صَحَّحْتُ الزيارةَ بالمَعاني دونَ الرُّسُوم.

ومن أجْل ذلك أطلُب منكمُ الجمْع بيْن الضّرَّتيْن، والقِرَانَ بيْنَ الحَسَنَتَيْن، والحُصولَ على كِلْتا السعادَتَيْن، والفوْزَ بكلا الفَخْريْن والعِزَّتَيْن، ما لا يُوصلُ إليه، ولا يُحْصل عليه، إلا بمحْض فضْلِ الله وعِنايَته، وبركة التعلق بخاصَّتِه من أهْل وُدِّهِ وولايَتِه.

ثم ليكنْ في كريم عِلْمِكَ أيها الأكْرمُ الأرْحم، الأرفق، الأرْأف الأعطف الأشفق، أني طرحتُ نفْسي بين يديْكَ، وألقيْت مَقاليدَ أمُوري إليْك، إذ (النَّبِيُّ أوْلى بالمؤمنين من أنفسهم)، هذا، ومُرَادِي لَفْتَةٌ صَمَدِيَّة، ممَّنْ قُدِّسَ في أزَل الأزليَّة، برحْمة الرحْمانية... تنيرُ صدْرِي، وتُنِيفُ قدْري، وتبلِّغني من كلِّ خيْر، ما دريْتُ وما لا أدْري.

الرياحي:

البُعْـدُ لـيس لـه عـلَى أهْـلِ الـولا حُكْـم، وهـلْ أمْـر الولايـة يُعقـلُ
مـا عـاقَ أصْـحَمَةَ النجـاشيَّ بُعْـدُهُ عـنْ أنْ تـوَلَّاهُ الرَّسُـولُ الأفْضَـلُ

وقد قلت:

أغِيثـوا، مَـنْ لكـمْ عِـزٌّ وجَـاهُ قـريحَ القلْـب، شـوْقكمُ وَجَـاهُ
تُقلِّبُـه الهُمُـومُ حَلِيـفَ شَـوْقٍ يُصَـيِّرُهُ كمَسْـلوبٍ نَجَـاهُ
سَـألْتُ وِصـالَكمْ ربًّـا رحِـيمًا كـريمًا، لا يُخَيِّـبُ مَـنْ رَجَـاهُ

والسلام عليكم ما تعاقبتْ حرَكـاتُ العـالمِ وسـكناتُه
أيُّها الغائبونَ عنَّا، وإنْ كنتْم لِقَلْبِي بـذكركَمْ جِيرَانـا[1]

ومثلما **استقطب محمد ويقي بن سيد الأمين** إلى **هذه الحضرة** صفوة من **أبناء عمومته**، إضافة إلى أخيه لأم: **محمد بن أحمد انبسيف**، وشقيقيه: **الشيخ، وعبد القادر (آدب)**، فإن أخاهم الآخر: **أحمد بن سيد الأمين** – كما يقول الأستاذ هارون –: (**قدم على الشيخ سيدي، في أثر أخيه عبد القادر**، فأخذ عنه وله ابن سماه باسمه **سيدي**، ويلقب **"الدي"** ولسيدي هذا ابنه العالم، المعروف عند الناس بـ **مُحمد بن الدي**.....ولـ مُحمد بن الدي كثير من الحكايات مع الوالد **الشيخ سيدي باب**، وكان يعدُّه ممن أخذ عنه طريق التصوف، وانتفع به، وسياتي شيء من أخباره معه في ترجمته إن شاء الله)[2].

ومن الجدير بالذكر أن عدد من استقطبته هذه الحضرة من أولاد بوسيف، لا يتسع المقام لاستقصائه، حيث اقتصرتُ هنا على الدائرة الأقرب نسبا وأدبا من أهل آدب، موضوع البحث، وقد لخص الأستاذ هارون، بقوله:

[1]– مسودة الجزء الخاص بكنتة من **"الأخبار"**، ص 105.
[2]– نفسه، ص 106.

(وكان **أولاد بسيف** هؤلاء يرسلون **للشيخ سيدي** المعروف مع الشيخ أحمد بن **المختار بن الزوين**، ويقولون: إنهم معه "كإبل الشرگ إما الزاگر، وإما الگابل" ومعنى ذلك أنهم على حالتين معه، إما تلاميذه، أو محبوه، وبتتبع ما مضى من الصلات الطيبة يظهر مصداق ما قالوا)[1].

[1]- مسودة الجزء الخاص بكنتة من **"الأخبار"**، ص 134.

سادســـا

مشيخة أهل آدب
جدل الوهب والكسب

وهنا – طبعا– ينتهي بنا المَطَافُ إلى **"آدبَّ" (عبد القادر)** (1820 – 1875م) الشقيق الأصْغر لأبناء **سيد الأمين (ت1822م) بن مْحمد بن الطالب اعمر بن خيري**، سَلِيلِ هاتيك الدوّحة العرفانية، الراسخةِ الجُذور، الفيْنَانَةِ الفُرُوعِ، حيْث لم تزل تفاعلات هذه السلالات العلمية والصوفية، المعرفية، تتكثف، حتىٰ انتهت إلىٰ وريثها الشرعي **"آدب"**، الذي كان أخوه الأكبر: مْحمد "ويقي" بن سيد الأمين، يقول لشيْخِيْهِ في الحضْرة المُخْتَارِيةِ الكنْتية بـ "أزواد"، إنَّه لا يدْرسُ العلومَ، ولا التّرْبيةَ الصُّوفيةَ، لنفْسه، وإنَّما يخدمُ بالنِّيَابةِ عن شقيقِه الأصْغر الذي بَقِيَ وحيدا يعْتني بعائلتهم، في الوقْتِ الذي تفرَّقَ من حوْلِه، كلُّ أقاربه – طلبًا للمَعرفةِ والعِرْفان– باتجاه أهْل الشيخ سيدي المختار في الشرْق، ثم أهْل الشيخ سيدي– بعد وفاة ويقي– في الغرْب، ومهما كانت صعوبة تصديق هذا المنطق، في عصرنا الراهن، ومهما يكن استعداد ذهنية المتلقي المعاصر لإنكاره، فهم يجزمون بأن الله قد اسْتجابَ لرغْبة مْحمد "ويْقي" في أخِيه آدبَّ؛ حيث ورِثَ – منْ لَدُنْهُ– سِرَّ أسْرتِه العِلْمِيّ، والرُّوحِيّ، والشِّعْريّ، فكسَفَتْ شُهْرتُه إشْعاعَ أخَوَيْه، وأبِيه، وأعْمامه، العُلَمَاء الشُّعَراء، رغم أنه قد ترَكَه أبوه، وهو أصغر أبنائه، في بيئة حرْبية، ذاتِ ظروف حياتية صعْبة، غيْر مُوَاتِية لطلَبِ العِلْم، وهذا ما يَسْتَحْضِرُهُ ابْنُه سيدي محمد "سِيدِيَّ" رِوَايَةً عنْ والِدِه، حينَ يَرُدُّ علَىٰ أخِيهِ": محمد لحْوار"، عنْدما

اسْتَأذَنَه في الرحْلة لطلَبِ العِلْمِ، فقال له، في تَضاعيفِ رِسالتِه الجَوابِية: "فتْح القهَّار في الرَّدِّ على محمد لحْوار":

(**وأمَّا ما ذكرتَ** من الْتزامنا الرحلة في طلَب العِلْم، خلَفا لسَلَفٍ، فلا نُطيلُ فيه، ولكن:

خـذْ مـا تـراهُ ودعْ شـيْئا سـمعْتَ بـه في طلْعَةِ البدْر ما يُغْنيـكَ عـن زُحَـلِ

إذْ قد **أدركت والدَنا** رضي الله عنه، فقد حدَّثَني -رضْوانُ الله عليْه- غَيْرَ ما مرَّة -وأنتَ شاهدٌ- أنَّه نَشأ فيما ينْشأ فيه مِثْلُه من أطفال أهْل الحرْب، من مُعاناةِ المَعِيشةِ وكدِّ العِيالِ، في شظَفِ العيْش، وشُغْلِ البَال، مُوَافَقَةَ مَسِيرِ إخْوَتِه طَلَبَةً، فمَا زالَ كذلك حتى بَلَغَ، وهو على تلك الحالة، لمْ يكتسبْ عِلْمًا، ولمْ يُطالعْ...قال: بلغت مبلغ الرجال، وليس لي إلا التمسك بآية: "واتقوا الله ويعلمكم الله"، واعتماد حديث: "من عَمِلَ بما عَلِمَ أوْرَثهُ الله عِلْمَ ما لمْ يعلم"، مع علو الهمة، ونفوذ العزْمة... قال: وفكرت ليلة في صحة قوله صلى الله عليه وسلم: لو تعلقت همة المؤمن بالثريا لنالها؛ فوضعتُ بين يدي، وقال رضي الله عنه وأرضاه، وجعل نصيبنا منه أوفر نصيب وأوفاه، وذلك من صدق التوجه، مع العمل بمقتضى العلم، كائنا ما كان، كما قيل:

لكـــنَّ سِرَّ الله في صـــدْق الطلـــبْ كمْ رِيـئ في أصْـحابه مَـن العَجَـبْ!

وقال: فلما توفيتْ الوالدة -رحمها الله- أعملتُ الرِّحْلة إلى الشيْخ الكامل: الشيخ سيدي، ما شاء الله، فأجازني، وشيَّعني إلى الأهل).

ورغم أن **آدب** لمْ تكنْ له رِحْلَةٌ في طلَبِ العِلْم، غيْر رِحْلتِه هذه إلى حضْرَةِ الشيْخ سيدي، والتي لمْ تتعد حوالي ستة أشهر فقط، فقد تكللت بإجازته، 1265هـ-1848م، "**في الأوراد القادرية، والأحزاب والتوجيهات المحمدية والمختارية، أخذا وعطاءً وروايةً وإرْواءً، بالشرْط المألوف والسَّنَنِ المَعْروف خَلَفًا عن سَلَفٍ**...

حيث يقول: **"وأجزتُه أيْضا فِيما تَحَصَّلْتْ وتتحصل فيه أهْليَتُه من العلوم الشرْعية أصُولِها وفرُوعِها ومَقاصِدِها ووسائِلِها على نحْوِ مَا أذِنَ لِي وأجازَنِي فيهَا شيْخُنا الخليفةُ سيدي مُحمد..."**.

ونظرا لأنَّ مثْلَ هذه الإجازاتِ لمْ يكنْ المَشايخُ العُلماءُ الأتْقياءُ يمْنحونَها جُزافا، كما تُمْنَحُ اليوْمَ الشَّهَادَاتُ العُليا، فقدْ أوْضَحَ الشيخُ سيديَّ المُرْتَكَزَاتِ التي أسَّسَ عليْها حُكْمَه بالأهْلِيَّةِ المُزْدَوجَةِ للمُرِيدِ المُجَازِ في المَعَارِفِ الصُّوفية، والعُلوم الشرْعِية مُطلقا:

"وإنَّما أذنتُ له وأجزْتُ له؛ لِمَا لاحَ لِي فيه من لَوائِحِ الصلاحِية للتقديم، ولِمَا شمَمْتُ فيه من روائحِ الخُصوصية المُمْزُوجَةِ بالصِّدْق والتسْلِيم".

وهذا نص **إجازة الشيخ سيدي لعبد القادر(أدب)**:

"بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما، الحمد لله مسبب الأسباب، ومعتق الرقاب، ومختص الأمة المحمدية بفضيلة الإسناد والإعراب والانتساب، والصلاة والسلام على النبي الأمي الأوَّاه الأواب، وعلى آله وأزواجه وذريته وسائر الأصحاب، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم العرض والحساب.

هذا، وليعلم الواقف على المكتوب، من أرباب القلوب، أني -أيها الكاتب المنتمي آخرا، إن شاء الله تعالى- قد أذنتُ **وأجزْتُ** للابن الرشيد، والمريد السعيد، والسيد الحميد: **سيدي عبد القادر بن سيد الأمين بن الطالب اعمر بن خير**، وقانا الله -وإياه- من كل مكروه وضير، في الأوراد القادرية، والأحزاب والتوجهات المحمدية والمختارية، أخْذَا وإعْطاء، وروايةً وإرواءً، بالشرط المألوف، والسَّنَن المعروف، خلفا عن سلف من صلاح النية والإخلاص في منحها ومنعها، ومن الاستخارة لله تعالى والاستشارة، واختبار جِدِّ الطالب وصدقه في طلبه، وصلاحه لمطلوبه كُلًّا أوْ بعْضا.

وأجَزْتُه أيْضا فيما تحصَّلتُ، وتَتَحَصَّلُ فيه أَهْلِيَّتُه مِنَ **العُلوم الشرْعيَّةِ**؛ أُصُولِها وفُرُوعِها، وَمَقاصِدها ووسائلها، على نحْو ما أذِنَ لِي **وأَجَازَني فيه شيخُنا الخليفةُ** سيدي محمد رضي الله عنه، **ثم ابْنُه وخُليفته** -من بعده- سيدي المختار، **وأخواه** التقيَّان النقِيَّان: سيدي حبيب الله، وسيدي أعمر ابْنا شيخِنا الكبيرِ سيدي المختار بن أحمد بن أبي بكر الكنتي ثم الوافي رضي الله عن الجميع وأرْضاه، وجعَلنا به ممن توَلَّاه، وارتضاه، بالسَّنَدِ المُتَّصِلِ المُسلْسل، إلى أشرف الرسل، صلى الله عليه وسلم كل الصلاة والسلام وعلى اله وصحبه القادة الهداة الأعلام.

وإنَّما أذِنْتُ له وأجَزْتُه لما لاحَ لِي فيه من لوائح الصَّلَاحِيَّةِ للتقْدير، ولما شَممْتُ فيه من روائح الخُصوصِيَّةِ المَمْزُوجَةِ بالصدْق والتسْليم والتبْجيل لجناب الشَّيْخُوخَةِ والتعَظيم، ورجاءَ أنْ يكونَ ذلك عوْنا على إشادَة مَعَالِمِ الدين، وزيادة في عُدَّةِ حزْبِه المُرْشِدينَ والمُسْتَرْشِدين.

واللهَ تعالى نسأله أنْ يكتبه في ديوان خواصِّهِ، وأنْ يُجْلِسَه على مَنابِر قُرْبِه وَمَنَاصِّهِ، وأنْ يُعينَه، ولا يُبِينَه، ويُثْبِتَ يَقينَه، ويُحَقِّقَ تمْكينَه، إنَّه القريبُ المُجيبُ، لدعوة المُضْطَرّ المُنيب.

وكتبَ -مُجيزًا وآذِنًا ومُنيبا، لأواسِطِ شهْر الله الحرام المُحَرَّم، **مُفْتَتَحَ سَنَةِ خمس وستين بعد المائتين والألف**- عبْدُ ربِّه، الراجي منه غفرانَ ذنْبِه، وسِتْرِ عيْبِه: **سِيدِيَّ بن المُختار بن الهيْب الانْتِشائِيِّ**، كانَ الله للجميع بمَنِّهِ وكرَمِه وليًّا ونصيرا، اللهم امين"[1].

وقد أصبح **عبد القادر "آدب"، شيخا** في فضائه الجغرافي الاجتماعي الواسع، حيث كان -حسب روايتنا- من ضمن **مريديه: ثلاثة** من **أبناء باب أحمد بن الشيخ سيدي المختار الكنتي**، هم: **سيد محمد** الملقب بـ**"أچَّ"**، **وعابدين،**

[1]- هارون بن الشيخ سيدي: مصدر سابق، ص 99- 100.

والبكاي، و يبدو أن "أجَّ" كان صديقا لآدب، مشيدا به ، وببعض كراماته التي تروىٰ عنه، حيث يقول في ميمية له من الطويل:

لقد نامَ من أمْسى خَلِيًّا منَ الهَوَى ... فبتُّ كئيبَ القلب، لستُ بنائم
وأرَّقَنِي تذْكارُ بيضٍ أوَانِسٍ ... مَرَابِضَ للشيْطانِ، غُرِّ المَباسم
مبيداتِ صِيدٍ، لياتِ مَعاطِفٍ ... كريماتِ أحْسابٍ، حِسَانٍ نَوَاعِم
إذا مَا أُسِمْنَ الفُحْشَ، ظَلْنَ غَواضبا ... نشاصا، وخوْفًا من رُكوبِ الجَرَائم
تمتَّعْتُ أزْمانا، لُهُنَّ مُجاورًا ... فَبِنَّ، وَخفْض العيْشِ ليْس بدائِمِ
فجالسْتُ أقْوَامًا، كأنِّيَ أعْجَمٌ ... لديْهِمْ، وهمْ -عنْدِي- كمثْل الأعاجِمِ
...تمسي، وتصبح في نقى ... مع الوحْشِ، ترْعَى في مِخاضٍ سَوائمِ
لعَمْرِي لئِنْ أمْسيْتُ عنْهُنَّ نائيا ... يُشَوِّقُنِي -للوصْل- نوْحُ الحَمائمِ
فيا رُبَّ يوْمٍ قدْ ركبْتُ نَجَائبًا ... هِجانا، كِرامًا، من هِجانٍ، كرائمِ
أجُوبُ عليْها كلَّ خرْقاءَ لْهْلَهٍ ... وتخْدِي بِدَوِّ الأرْض وَخْدَ النعائمِ
مَعِي كلُّ مِفْضَالِ المَوَاهبِ يَنْتمِي ... إلى عبْد شمْسٍ، أو إلى القرْم هاشمِ
إذا مَا دَعَا الدَّاعِي ليوْم كريهةٍ ... أتَى مُسْتَعِدًّا لانْصِدَاعِ الجَمَاجِمِ
وإنْ هَمَّ بالمَعْرُوفِ أمْضَاهُ، لم يَمِلْ ... إلى عَذْلِ عَذَّالٍ، ولا لوْمِ لائمِ
تُنِيطُ الذِي أدْنَتْهُ منْهُ وسِيلةٌ ... منَ العِزِّ، فعْلا، فوْق نجْمِ النَّعائم
وتاهَ على كلِّ الأنَامِ ونَاوَلَتْ ... يَداهُ الثرَيَّا، قاعدًا غيْر قائمِ

أما **سيدي (1855 - 1895م)** الولد البكر لـ **آدب** فقد قلَّدَ والدَه وشيخَه الوحيد: **آدب**، في الاعتقاد بجدوائية العلم اللدني/ الوهْبي، أكثر من العلم الكسْبي، متبعا إياه في عدم الرحلة الخارجية للدراسة، والاكتفاء الذاتي بقاعدتي: الآية الكريمة: (واتَّقوا اللهَ ويعلمكم الله)، والأثر(مَنْ عَمِلَ بما عَلِمَ أوْرَثَهُ اللهُ عِلمَ مَالَمْ يَعْلَمْ)، إضافة إلى رضى والديه، ففي إطار رده علىٰ أخيه **محمد لحوار**، الراغب في الرحلة طلبا للعلم، يحاول ثنيه عن ذلك بضرب المثل له **بوالدهم آدب**، حسب

ما تقدم، ثم بتقديم **نفسه له مثلا آخر**، يمكن أن يعتدَّ به، فيقول: (**أما أنا** فليس الخَبَرُ كالعِيان، وليس الصادق كمن حدَّث ببهْتان، فقد شاهدتَ مَوارد أمْري ومَصادِره، وذلك أني نشأتُ زمن الصبُوَّة راغبا في التغرُّب، والابتعاد في التطلُّب، فجعلَ والدُنا -رضي الله عنه- يسوسني بسياسة عجيبة، ويَعِدُني بالمساعدة على ذلك، وينشر لي أحوال طلَبَةِ العِلْمِ في جميع المَسالك، مع اطِّرَاحِي بين يديه،.... والعمل بمقتضى ما يشير به ويقضيه، حتى أطْلَعَنِي الله -من فضْله- عليه، وقصرتُ همَّتي على الشوق إلى ما لديْه من علم ، فوصلت إلى ما إليه من فضل الله وصلت، مما لا أُنْكِرُه امتثالا لأمْر الله،... ولا أذْكُرُه بيْن يديَّ من قلَّدَ هواه، وتولَّاه، "فظُنَّ خيْرا ولا تَسْأَلْ عنِ الخَبَرِ"[1]، "﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ ﴾[2]، ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾[3]، ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾[4]، ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾[5]...".

وقد شهد له **بمكانته العلمية الوهبية** الشاعر **محمد بن الحابوس** المعروف بمحمد "مِرّ"، بترقيق الراء، حيث يتخَلَّصُ إلى مدحه بقوله:

فـ "سِيدِيَ" لا يُسابَقُ في مَجالٍ ... مِنَ العِلْمِ الصَّحِيحِ، وبذْلِ مال
ونحْوٍ حازَه، لوُجُودِ فتْحٍ ... كفَاهُ عن التّعَلُّم والكلالِ
وشِيمَتُه البَلاغَةُ في المقالِ ... ويُسْقَى العلْمْ كالعذْبِ الزُّلالِ
لواءُ المجْد يَثْبُتُ في التقاضِي ... له، وله شَهَادَةُ ذي الخِصالِ

---

[1] – البيت لعبد الله بن المعتز، تمامه:

فكان ما كان، مما لست أذكره ... فظن خيرا ولا تسأل عن الخبر

[2] – **قرآن كريم**، سورة يونس، الآية: 58.

[3] – **قرآن كريم**، سورة الأحزاب، الآية: 62.

[4] – **قرآن كريم**، سورة فاطر، الآية: 43.

[5] – **قرآن كريم**، سورة النحل، الآية: 18.

وحتىٰ أخوه **محمد الحوار** الذي كان عالِما وشاعرًا وفارسا وسيِّدا، فإنه كان -أيضا- هو الوحيد من **أبناء آدبَّ**، الذي رحَل في طلب العلْم، وتخرَّجَ - مُتبَحِّرًا فِيه- من مَحْظَرَتَيْ: "الكحْلاء والصفْراء"[1]، في أحْياء قبيلة "أجيجبه"، بمنطقة البراكنة، دون أنْ يَعْتَمِدَ علىٰ "الوَهْبِ" (العِلْمِ اللَّدُنِّيِّ)، المزْعوم توارُثهم له، من أبِيهم، الذي نالَ ما نالَ من مَكانتِه الرُّوحِية والعِلْمِيةُ، دون كسْبٍ مَعْرِفِيٍّ مَشْهُود، ولكن هنا تستمر المُفارَقة التي تُعَزِّزُ غلبة المَنْحَىٰ الوهبي، علىٰ الكسبي في هذه الأسرة، مهما كان التشكيك مشروعا، فإذا كان "**آدبَّ**"، **غطَّتْ شُهْرَتُه على صِيتِ إِخْوَتِه وَأَبْنَاء عُمُومَتِه**، رغْم أنَّه الوحيدُ -بيْنهم- الذي لمْ يرْتحِلْ فِي طلَبِ العِلْم، **فكذلك ابْنَاهُ: سِيدِيَّ، والشيخ أحمد، غطَّتْ شُهْرتُهما على شُهْرة أخيهما: مُحمد الحوار**، رغْم أنَّه تفرَّدَ -دونهما- برحْلة عِلْمية مُظَفَّرَة، وقد حاولَ **شَقِيقُهُ الأَكْبَرُ: سِيدِّيَّ** إقناعَه، بالرضى بطريقة الأسْرة، ضاربا له المَثَلَ علىٰ جَدِّواها، بما ناله والدُهما: "**آدبَّ**"، وبما نالَه "**سِيدِيَّ**" نفسه، من مَواهبَ "**لَدُنِّيَّةٍ**"، مُؤلِّفا في ذلك رسالته الآنفة الذكر، التي سمَّاها: "فتْح القهَّار في الرَّدِّ علىٰ محمد لحْوار".

وهنا يلاحظ إلحاح **سيدي بن آدب** علىٰ "**فتح القهار**" و"**فتح الجليل**"، في عنواني رسالتين له، تأسيا- ربما- بالشيخ سيدي المختار في عنوان كتابه: "فتح الوهاب"، وهنا أيضا لا بد أن نشير إلىٰ أن مفهوم هذا "**الفتح**" وهذا "**الوهب**"، لا يعني التواكل، والتكاسل، وعدم السعي لكسْب العلوم والعارف مطلقا، فهذا **سيدي بن آدب** - في "**فتح القهار**"- يخاطب أخاه **محمد لحوار**، شارحا **جوهر رؤيته**، القائمة علىٰ اشتراط اقتران العلم المرغوب **بالتقوى والإخلاص** لله في الطالب والمطلوب:

[1]- اسم لمحظرتين، كانا في تلك المنطقة منذ حوالي ثلاثة قرون، أخذتا لونيهما من لوني الخيمة الكحلاء المنسوجة من صوف الضأن، الخيمة الصفراء المنسوجة من وبر الأبل. وقد تخرج منهما خيرة علماء البلد.

"فإذَا تقرَّرَ هذا عِنْدَكَ- أَيَّدَكَ اللهُ وأَرْشَدَكَ- عَلِمْتَ أنَّ العِلْمَ مَرْغُوبٌ فيه، مع وُجُوبِ طَلَبِهِ من العاقِلِ والنبيه، لكن أَيْنَ سُحْنُون؟[1]، كما قالَ المَجْنُون، إذ لا بُدَّ للطريق من دَلِيلٍ ماهرٍ وإمام، وأَوَّلُ ما يُعامَل به الأستاذُ الانْقيادُ لأمْرِه والاسْتِسْلام، و"الرَّعِيَّةُ على دِينِ المَلِكِ" خَطَأً أوْ صَوَاب؛ ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾[2]، وقد عَلِمْتَ أنَّ مَن اتَّصَلَ بوَاصِلٍ وَصَل، وأنَّ مَن اتَّصَلَ بمُنْقَطِعٍ بانَ وانْفَصَل، إذْ "العَالِمُ- كما في الحَديثِ -كالسفينة، إنْ صَلحتْ نَجَتْ وأَنْجَت، وإنْ فسَدتْ هلكتْ وأَهْلَكَت".

وهكذا يكون جوهر هذه الرؤية هو استمداد المعارف من الله، والاعتماد عليه، أولا وأخيرا، مما يعني أن **فتح الله ووهبه**-إذا تحقق- تتنزل البركات في الفهم، والعلم، فيكون الطالب يكتسب المعارف الكثيرة بمجهود أقل مما يبذله غيره من طلاب العلوم الكادِّينَ، الجادِّين، وقد حاول كل من **آدب** وابنه **سيدي** أن يؤصلا ذلك بالآية القرآنية القائلة بأن من يتقي الله يعلمه، وبالحديث النبوي المؤكِّد أن العمل بما عُلِمَ، يورث علم مالم يُعلم، وهنا نرى عبد القادر (**آدب**) رب البيت يتضرع إلى الله:

أمْوْلاي، جُدْ لي بالمعارف، والتقى وعِلْمٍ، نَفُوعٍ، صَفْوُهُ لن يُكَدّرا

وقد لاحظت في مستهلِّ رسالته إلى شيخه: الشيخ سيدي بن المختار الهيبة الأنتشائي، استلهامه لطائفة معينة من أسماء الله الحسنى، غير بعيدة عن المدار "الوهبي" الإلهي، فهو بعد وصفه لنفسه بعيوب كثيرة، يُشَبِّهُ كثرتها واستحالة حصرها، بنقيضها من وفرة فضائل شيخه، وما يحويه، "من العُلوم والحُلوم،

---

[1]- يشير بذلك إلى قصة تروي أن سيدا صالحا يسمى سحنون كان يرقي المجانين بكلمات قليلة سمعها شخص آخر فحفظها ورقى بها مجنونا فلم تعط نتيجة، فسال لماذا نفس الكلمات تشفى عندما يستخدمها سحنون ولا تؤثر إذا استخدمها هو؟ فقال له المجنون الذي رقاه: **ينقصك فَمُ سحنون**. فأصبح فم سحنون مثلا يضرب لأي شيء ينقصه السبب الذي يؤثر به.

[2]- **قرآن كريم**، سورة البقرة، الآية: 166.

والحِكَم والمَعارف والعَوارف والمَكارم والفضائل والمَغانم والفواضل وغير ذلك، بمَحْصُور... وعسى الحميد الشكور المُلْهِمُ المَنَّاح، الرحمن الرحيم السماح، الحليم الصبور، أنْ يجْعلني- بجاهكم العظيم عنده- ممنْ توَلَّاهُ واصْطفاهُ، وارْتَضَاهُ فأرْضاهُ واجْتباه، وأنْ يجعلَ تعَلُّقي- في جميع أمُوري- به، لا بسواه".

ثم يؤكد إيمانه العميق بقدرة الله على تغيير ما بذاته من عيوب، وتعويضها بنقائضها من الفضائل المرغوبة، فيستدرك قائلا:

(**لكنَّ الله يزيلُ الأشياءَ من مَجالِها**، بخَلْقِ أضْدادِها في مَحَالِّها، فيزيل نارَ الشُّحِّ ويُخْمِدُها بمَعِين الإيمان...

وكذلك الغَضَبُ يَخْلقُ مَكانَه الحِلْمَ، **ويخلقُ العِلْمَ مَكانَ الجَهْلِ**، والنُّورَ مكانَ الظلْمة والرِّقَّةَ مكانَ القسْوَة، إلى هَلُمَّ جَرّا.

وقلَّما كانَ هذا إلا بواسِطَةِ نَبِيٍّ، أو وَلِيّ، وقد لجأتُ إلى الله، ثم إليكم متوجِّها بكم إلى أشياخكم، ثمَّ بكمْ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم بكم إلى الله **أنْ يفتحَ علي في العِلْمِ والحِلْمِ والحِكْمَةِ**).

وحتى ابنه **محمد لْحوار** الذي تفرَّدَ -بين إخوته- بمجهود مشهود في العلم الكسبي، وقام برحلة مُظَفَّرَة في طلبه، تخرَّجَ بعْدَها من "محظرَتي": "الصَّفْرَة والكَحْلَة"، فإنه لم يتخل عن نصيبه من استمداد العلم الوهبي من الله، حيث يقول:

وأوْلِني- منكَ- أسرارَ العلـومِ، بـلا كـدٍّ، ولا تَعَـبٍ، يـا وَاهِـبَ الطَّلَـبِ

وحتى أخوه الأكبر: **سيدي** بن **آدب**، في الوقت الذي كان يحاول إقناعه، بعدم جدوائية الرحلة في طلب العلم السائد في عصره، الذي يراه- في مُجْمَلِه- منزوع الدسم، أي التقوى والإخلاص، يُخَلِّيهِ بصفة "ذي **الفُتُوحَاتِ** و**الأدَب**"، حين يخاطبه في مستهلِّ رسالته إليه: "**فتح القهار** في الرد على **محمد لحوار**"، قائلا:

"إلى أخيه الشقيق، وخُلاصَةِ نبْعَةِ أبيه الأحْنَى الشفيق، ذِي **الفُتُوحَاتِ والأدَب**، السَّيِّد **محمد** بن النَّسَب، بالسلام العام، والرحْمة والبَرَكة والإكْرام، وبالوَصِيَّة لنفْسي ولكَ بتقْوَى الله التي هي رأسُ الأمْر ومِلَاكُه".

ومَهْمَا يكن؛ فآثار **آدب**، وابنه **سيدي** و**أخويه** تنضح بمعارفهما الضافية في القرآن، والحديث، والفقه، وأصوله....، وبقدراتهما البيانية العالية في بقايا أدبياتهم الشعرية والنثرية.

أما **الشيخ أحمد الابن الأصغر لـ آدب** فقد أدرك -هو الآخر- أن "من يتقي الله البطلْ"[1]، فأخذ نصيبه وافيا من ميراث **جدلية الكسب والوهب** في تكوين أسرة **أهل آدب**، في العلم، حيث لم تكن له -كسلفه- أي رحلة خارجية في طلب العلم، أو التصوف، ورغم ذلك فإن **آثاره الباقية يستفاد منها أنه متمكن من ناصية الأسلوب الأدبي** الرفيع، الذي يعد بصمة فنية مميزة لنثر **المدرسة الكنتية الشرقية والغربية**، شأنه في شأن في ذلك شأن أخيه **سيدي**، وأبيهما **آدب**، وجل سلالة **أهل محْمد ولد الطالب أعمر** بن خيري **البوسيفيين**، كما أن بعض آثاره توحي **بمكانته الفقهية العلمية**، أما من الناحية الصوفية فسرعان ما أصبح **مرجعية الطريقة القادرية** داخل فضاء كنتة الغربيين، حيث كان تلاميذه من أبناء الشيخ سيدي المختار الكنتي -حسب روايتنا-:

1- الشيخ بن عابدين بن باب أحمد بن الشيخ سيدي المختار، وأولاده الثلاثة:

أ- باب أحمد بن الشيخ بن عابدين.

ب- البكاي بن الشيخ بن عابدين.

ج- السبقه بن الشيخ بن عابدين.

---

[1]- شطر من لامية عمرو بن الوردي:

اعتــزل ذكــر الغــواني والغــزلْ وقــل الفصــل، وجانــب مــن هــزلْ

ومن أبناء الشيخ سيدي محمد الخليفة بن الشيخ سيدي المختار الكنتي كان من تلاميذه:

2- الشيخ (الديه) بن باب بن الشيخ سيد مُحمد الكنتي بن الشيخ سيد محمد.

ومن أولاد بوسيف:

3- الجيلي بن أحمد انبسيف في تكانت

4- حم بن سيدي بن آدب، في البراكنة

5- "خُ" بن سيد أحمد بن سيد الأمين زعيم أولاد بوسيف في الحوض الشرقي.

ومن أولاد سيد حيبل في تكانت:

6- زعيمهم العام: أحمد بن سيد امحمد بن أحمد

7- عمار بن مُحمد بن محمد لحمد

8- أخوه: الشيخ بن مُحمد

ومن أولاد التناكية (أولاد سيد حيبل):

9- حمود بن لمرابط.

10- أخوه محمد المختار بن لمرابط.

ومن أولاد سيدي الوافي في تكانت أيضا:

11- زعيمهم: "**أجَّ**" بن أحمد بن محمد محمود بن أمينوه.

ومن المتغبرين:

12- عبد الله بن شماد

ومن أهل الأزرق:

13- الشيخ بن أنَّ زعيم جماعته

ومن زعماء أولاد الناصر في الحوض الغربي:

13- اعمر بن حبيب

14- عثمان بن بكار

أما من **ناحية الزعامة السياسية**، فقد اقتضت هذه المركزية الروحية، شبه الشاملة، المتشعبة الامتدادات في جُلِّ الفضاءات الكنتية وغير الكنتية، قياداتها وجماعاتها، أن **يتفرد الشيخ أحمد بن آدب بكتابٍ/ "كنَّاشٍ" في دائرة المجرية بتكانت**، خاص **بأهل آدب**، لا يتبعون فيه لأي قيادة كنتية، ولا حتى قيادة فخذهم: أولاد بوسيف، خضرهم، وبيضهم، أحرى الأفخاذ الكنتية الأخرى التي قلما يوجد لها زعيم إلا وهو مريد **للشيخ أحمد بن آدب**...

وقد تأسست هذه **المشيخة "الآدبِّيَّة" السياسية المستقلة**، بعدما نزح **الشيخ أحمد** من منطقة **آفطوط** في البراكنة، إثر خلافات بيْنِيَّة داخل **أولاد بوسيف** هناك، اشتد حوله تقاطبُها، ولم يستطع احتواءها، **فهاجر إلى تكانت** بحوالي خمسين خيمة، وحتى **أهل آدب** الذين بقوا في آفطوط بقيادة تلميذه وابن أخيه: **حم بن سيدي ولد آدب**، كانوا تابعين **لسجل مشيخة الشيخ أحمد** في دائرة المجرية، لا للسجلات الإدارية البوسيفية في البراكنة.

سابعـــا

أهل آدب
جدلية النسب والأدب

إذا كانت **المدرسة الكنتية** عموما، و**المختارية** خصوصا، معروفة لدى الباحثين المتخصصين، **بروعة أسلوبها الأدبي الراقي**، وإشراق ديباجتها البيانية الفخمة، فقد رأينا، **لأهل سيد الأمين بن محمد بن الطالب اعمر** بن خيري **البوسيفيين**، نصيبا وافرا من **ميراث تلك المدرسة الكنتية الأدبية الروحية**، في شعرها ونثرها معا، عبَّرَتْ عنه، قصائدهم، ورسائلهم، وإذا كان اكتساب مهارات الشعر ليس بالشيء المُسْتَصْعَب على أبْناء البدْو من العرب والمستعربين، ولا سيما بالنسبة للمتعلمين، فإن الدارس لن يعرف -بالبداهة- متى تمرَّسَ هؤلاء البُداةُ الرُّحَلُ المُحَاربُون بتقنيات الكتابة النثرية، وتشربوا مهارات التعبير بها، وفق ذلك المستوى الأدبي العالي الجودة، فحين كان رجال هذه الفصيلة البوسيفية في منطقة "آگان" منطقة التجاذُب والتقاطُب بين حضرتي أهل شيخ سيد المختار الكنتي في الشرق، وأهل الشيخ سيدي في الغرب، كان هؤلاء يخاطبون شيوخ الحضرتين بشعرية طافحة، ونثرية مُحْكَمَة، ومادام توارث الشعر في هذه السلالة جذورا، وفروعا، عبْر القرون، قد برهنَ على أطروحته بحْثٌ مستقل لي حول هذا الموضوع[1]، فإن أمثلة توارث النثر -عبر **جدلية النسب والأدب**- واجد أمثلته

[1]- أدي ولد آدب: **أهل آدب: سلالة الشعر و"بيت القصيد"**، سلسلة التراث الكنتي البوسيفي (أدبيات أهل آدب) (2)، ط1، 2020م، مؤسسة آفاق للدراسات والنشر والاتصال، مراكش المغرب.

المُبَرِّهِنَة عليه أيضا؛ فهذا **الشيخ بن سيدي الأمين البوسيفي - شقيق آدب**- وصل إلى حضرة **الشيخ سيدي**، من مسقط رأسه، وهو -على ما يبدو- مُسْتَوْفٍ لشروط الكتابة الأدبية، حيث فاتح **الشيخ سيدي**، مَقْدَمَه عليه، ملتمسا منه وصفة شافية لأمراضه الروحية، وحتى النفسية، والبدنية، بأسلوب أدبي رفيع، بمقاييس عصره، نجح بدقة متناهية في تشخيص أحواله الظاهرة والباطنة، يقول فيه:

(**بسم الله** الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد واله وصحبه وسلم، الحمد لله مفرج الكروب، وغفار الذنوب، وستار العيوب، والصلاة والسلام على المجتبى المحبوب، وآله وصحبه الطَّهَرَة الجيوب، صلاة تؤذن بنيل المرغوب، وتأمين رعب المرعوب، وتنفيس الكرب عن المكروب، **هذا وإنه إلى مشكي الشكاة**... ومحط رحال العفاة، شيخنا وملجئنا...، ومُنَشِّئِنَا: **سيدي بن المختار**، وقاه الله شر طوارق الليل والنهار، **بسلام** يسامي عالي قدره الرفيع، ويضاهي سرعة بلوغه إليه وصول نائله البسيط الكامل الطويل الوافر السريع، لمستجديه...، الفقير، والمنتسب لإرادته تفاؤلا الكسير الأسير: الشيخ بن الأمين بن محمد بن الطالب اعمر بين خيري، صانه الله بكم من موجبات المقت والضير.

موجبه إعلامكم، وإن كنتم أعلم، وبالمصالح أدْرَى وأفْهم، بما أعلمكم علَّام الغيوب وألهم، أنَّ عبيدكم هذا ترادفت أوجاله، وعظم بلباله، لما أصابه من **الأمراض الظاهرة والباطنة**، والعِلل المُزْمِنة القاطنة، التي يضيق الصك عن تفصيلها، ويعجز البنان عن كتْبِها وتحصيلها.

منها: أنه دام عليه خفقان القلب والميد، وأن جسمه كالصوفة المنفوشة، لا يقدر على حر، ولا قر - وكلاهما- إن جاء- يتخلَّلُ جسْمَه، كما يتخلَّلُ الماءُ الصوفةَ المنْفوشة، إذا ألقيتْ فيه.

ومنها: أنه يجد - في بعْض الأحْوال- ضيْق نفَسٍ؛ صورته: أنَّ النَّفَسَ في حال صعوده لا يكاد يتناهى حتى تكاد الروحُ تسيلُ معَهُ، وكذلك في حالةِ هبوطِه.

ومنها: أنَّه إذا وَجَدَ بعْضَ الحُضُور - سَاعَةً- فِي ذِكْرٍ، أو تلاوة، يعْتريهِ خفَقَانٌ وضعْفٌ عَقِبَ ذلك، تكادُ نفْسُه تذهبُ لها، ثمَّ لا يَقْدِرُ على الذِّكْرِ، بَعْدَ ذلك، حتى تمضيَ مُدَّة.

ومنها: الوجَلُ في بعْض الأوْقات، الذي لا يُعْرَفُ له سبب.

ومنها: كثْرَة الهمِّ والاهْتِمام والخَطَرَاتِ الرَّدِيَّة، والوساوس المُرْدِيَّة، وحديثُ النفْس، وغير ذلك، مما يَعْجزُ عن إحصائه الضمير، فضْلا عن غيره، ولا ينبئك مثل خبير. والسلام عليكم ما دامت سكنات العالم وحركاتُه، وتمت لقاصدكم رغباتُه، وانصرفت عنه هناته وسيئاتُه، ما تروْنه من سوء الخط ناشئ عن بعض ما ذكر"[1].

وكما فاتحه بالأدب نثرا، ودعه بالأدب شعرا؛ حيث قال قصيدة سبق ذكرها، فيها (يمدح شيخه أبا الأنوار **الشيخ سيدي بن المختار**، ويستعطفه ويتوجع على فراقه)، كما قال الأستاذ هارون بن الشيخ سيدي[2].

أما أخوه **عبد القادر الملقب آدب** الذي اعتبره الأستاذ هارون: "من كبراء تلاميذ الشيخ سيدي"[3] ، فرغم أنه ، ولم يقم قبله بأي رحلة علمية، فقد -شرح هو الآخر- **حاله، بالأسلوب الأدبي** الرفيع الدقيق، مثلما فعل أخوه من قبل، **فكتب إلى شيخه**:

(**الحمد لله** الذي وسعتْ رحمتُه المُلْكَ كلَّه والمَلكُوت، وجعل من عباده خاصة يتصرفون في الكون، بُيِّضَتْ منهم القلوبُ، ولهم فيها رهَبُوت، وجَعَل مُخالفتهم سبب الشقاء والطرد - أعاذنا الله منها بحفظه- والجَبَرُوت، واصطفى - من أيد لامتثال- أمرهم، وجعل لهم في قلبه (كذا!) - في البعد والقرب- رغَبُوت.

---

[1]- هارون بن الشيخ سيدي: مسودة جزء من "**الأخبار**"، ص107-108.

[2]- نفسه، ص 108.

[3]- نفسه، ص 95.

علىٰ من وَرِثُوا مقامَه الأسْنىٰ، من مُخَدَّرَات الغُيوبِ والكرامات والحُسْنىٰ، وعلىٰ آله أعلام الأمة وغُرَرِها، وعلىٰ صحابَتِه حُمَاةِ الدين، وخاصَّةِ الخاصةِ ودُرَرِها.

هذا، وإنَّه إلى الغَوْث الكامل، وبحْرِ العلم والحكمة الشامل، مَنْ شيَّدَ بناءَ الدين بعْدَ هَدِّ أيْدي البِدَعِ لِبنَائِه، وأضاءَ شُموسَ العِلْم بعْدَ انطباق ظُلمات الجهْل علىٰ ضيائه.

مَهْبط تَنَزُّلات الحقائق، ومَسْقطِ رُؤوسِ مُخَدَّرَاتِ الرَّقائق، السَّيِّدِ الفاضل، والإمام العادل، النازل من دَرَجات الكمالِ في أعْلىٰ المَنازِل، قطب الوجود، ونُخْبَةِ الموجود، واسِطَة عقد الأخيار، سيدنا وملاذنا ووسيلتنا إلىٰ ربنا: سِيدِيَّ بن المختار، قضىٰ الله له ولنا به جميع الأوطار، من غير توقف ولا استئْخار.

بسلام يُسالمُه التبْجيل والاحترام، ويتسَلَّمُ سُلامَاهُ الرضْوانَ والمَبَرَّةَ والاكرام، ما دخلَ أهلُ الجنة فراديسهم بسلامٍ وإسْلام، وعانقوا حُورَ الخُصُوصِيّة بغبطة واحتشام.

وتحية أشْهى من حسْوِ المُدام، وأشْفَىٰ منْ بُرْءِ الآلام، وأزْهَىٰ من مُلاءمَة القَراطيس للأقْلام، عنْد تعَذُّرِ المُشافَهَةِ والمُكافَحَةِ بالكلام، **ممَّن طغتْ به نفسُه** فألقتْه في مَهَاوِي الضلال، وغَلَبَه شَيْطانُه فصَدَفَ به عن طريق الرِّجال أهْل الكمال، ومَلَكَهُ **هَوَاهُ**، فأدْخَلَه فيما يُسْخِطُ عليْه مَوْلاهُ، وتمَكَّنَ منْ قلبه **حُبُّ الدُّنْيَا** فامْتَلأَ من العُجْب، والسمعة، والرِّيَاء، وغير ذلك وغير... ممَّا لا يُحيطُ به إلا العليمُ الخَبير، العَبْدُ الفقيرُ الحقير، الذي هو في أيدي ما تقدمَ ذِكْرُه من الأعْداء أسير: **عبد القادر بن سيد الأمين**، خلَّصَه الله بجاهكم من أسْر النفس، والهوىٰ، والدنيا، واللعين.

أمَّا بَعْدُ، سَيِّدِي، سَدَّدَ الله بتسْديدكمْ الأنام، وسَوَّدَ بسُؤْددِ سِيادتكم الأتباعَ والأشياعَ والأحْشام، وأشاد بإشادة مشيدِ عِزِّكم فسْطاط أهْل الإسلام والإسلام، ورفَعَ منْ شرَفِكم الباذخِ راياتِ الخُصُوصِيَّةِ والأعْلام، وأقامَ بقوَام تقويمكمْ قامةَ

الشريعة والأحكام، وَمَلأ بإنافَة مُنِيفِ ذِكْرِكمْ المَلأ الأعْلى والأقطارَ والمَهَامِهَ والآكام، وأكرمكمْ برَوْح مزيدِ الاحترام، وريْحان ازْدياد التوْقير والاسْتسلام.

فاعلم، وإنْ كنتَ الغنِيَّ عن الإعْلام، بما أفاضَ عليكَ من أسرارِ غُيوبِه المَلِكُ العَلَّام، أنَّ هذا العُبَيْدَ المذكور، في أول المسْطور، غريقٌ -منَ المَهالِكِ- في بُحور، يغرق فيها النيلُ والمُحيطُ المَسْجُور، وقد مكرتْ به نَفْسُه فألقتْه في مَهاوِي الغرور.

وقد اجتمع فيه من العُيوب والذنوب، وعِظام الخُطوب، ما تضيقُ عن حصْرِ عُشْرِ العُشْرِ عنْ بعْض بعْضِه الرسُوم والكُتب والمَنْظُوم والمَنْثُور، كما ليس ما تحْويه من العُلوم والحُلوم، والحِكَم والمَعارف والعَوارف والمَكارم والفضائل والمَغانم والفواضل وغير ذلك، بمَحْصُور، وليس له - سَيِّدِي- لجميع ما ذكَرَ - بعْدَ الرحيم الغَفور- إلا همَّتُكم ورِعايتكم، والتوسُّل بكمْ إليْه في الحقير والخطير من الأمور، وعسى الحميد الشكور المُلْهِمُ المَنَّاح، الرحمن الرحيم السماح، الحليم الصبور، أنْ يجْعلني - بجاهكم العظيم عنده- ممنْ توَلَّاهُ واصْطفاهُ، وارْتَضَاهُ فأرْضاهُ واجْتباه، وأنْ يجعلَ تعَلُّقي- في جميع أمُوري- به، لا بسواه، وأنْ يُتْحِفَني بنظْرَة مِنْكمْ تُزيلُ عنِّي جميعَ الضَّنَى، وأنَالَ بها جميعَ المُنَى، الَّتِي ليس لي من التسبُّبِ فيها إلا أن أتَمَنَّى، وأكون بها من اللذين سبقت لهم منْه الحُسْنى، وأنْ يجعَلني بها من أهْل المَقام الأسنَى، ولا يقطعَني عنه لكثرة جِناياتي فأكونَ- إذ ذاك- من الذين غُبِنُوا غبْنا، انقطعوا به عن الأنى سارتْ بهم مَطايا الهِمَم حتى ألْقَوْا عصا التَّسْيَارِ بفِنَاءِ مَنْ لهمْ به عن جميع من سواه أغْني، ويجذبني بها اليه جذبة أفنى فيه بها عن المكونات، ثم أفنى ثم أفني، إنه القادر على ذلك والمرجو فيما هنالك"[1].

ثم شرع في تعداد المشاكل الروحية الخُلُقِية التي يشكو منها، ويطمح لاستبدالها بنقائضها من الفضائل.

[1]- هارون بن الشيخ سيدي: نفسه، ص 95- 97.

وقد رد عليه الشيخ سيدي بإجازته إياه، مشفوعة ببعض الوصفات الشافية لبعض ما شَخَّصَه له من حاجاته الروحية، وكما كانت الإجازةُ مُزْدوجةً في مَضْمُونِها، كانتْ مُزْدَوجةً أيضا في أسْلوبها، حيث شفَعَ الشيخُ سيديَّ نثْرَه، بشِعْرِه، مُخاطبا تِلْميذَه عبد القادر "آدبَّ":

لكَ الخيرُ يُرْجَى.. والمُنَى.. والأمَانُ ... وفيكَ -لَمكنُونِ الخُصُوصِ- بَيَانُ
براهينُ من ناسُوتِ ذاتِكَ أنْبَأتْ ... بِمَا -يَنْطَوِي فِي سَرِّها- ويُصَانُ
بأنَّك مَيْمُونٌ.. وسَعْدُكَ طالِعٌ ... وربْحُكَ -في الدَّارِيْن- فيهِ ضَمَانُ
لتبشر.. وطِبْ نفْسا، بما لَكَ.. ولْيكنْ ... إلى هذه الآلاءِ.. منكَ.. عِيَانُ
فإنَّ شُهودَ المَنِّ أعْظَمُ رُتْبَةٍ ... كَمَا نَصَّهُ أهْلُ التُّقى.. وأبانُوا

ولعلّ **اخْتيارَ الشيخ سيديَّ للشعْر** وسيلةً إضافيةً لتوْديعِ **"آدبَّ"**، كانَ فيه **إجَازَةٌ لشاعِرِيَّتِهِ**، التي لا نجِدُ دليلا على أنَّه أبَانَ عنْها خِلالَ فتْرةِ تلْمَذَتِه عليْه، لكنَّها ربما كانت من "بَراهينِ نَاسُوتِه" التِي قرَأَ الشيْخ - ببصيرتِه الوقَّادَة- " ما يُنْطَوِي في غيْبِها ويُصَانُ".. حيث كان **"آدبَّ"** سليلَ **الشاعِرِيَّةِ الكنْتيةِ** عُموما، وخُلاصةَ شاعريَّةِ **"أوْلاد بوسيف الخضْر"** خصوصا، ومُلتَقى روافِدِ شاعِريةِ بَيْتَيْ **أهل أحمد بن الطالب أعمر** بن خيري، أعمامه، **وأهل سيدي الأمين بن أحمد** بن الطالب أعمر، أبيه وأخوته، وحتى شاعرية أخْواله أهل **"أحمد أشْنَان"**[1] البُوسيفيِّين أيضا.

فبَعْد هذا كلِّه لا غرَابَة أنْ يكونَ **"آدبَّ" عَمُودَ بيْتِ الشِّعْرِ"** الأعْرَق في هذه السُّلَالَة الكنتية، دون مُنازِع، وأنْ يُورثَ أبناءَه وأحْفادَه -حتى الآن- سِرَّ القوافي، لدرجةِ أنَّه كان "يُحَنِّكُ" أبناءَه بالشعْر، بدَلَ التمْر واللبَنِ المَألوفيْن عند

[1]- خاله: أحمد ولد أحمد أشنان ولد بو إبراهيم- قبره يوجد في الحزام الأخضر، شرقي مدينة مقطع لحجار، حيث مات هناك خلال مرور مدد جماعته، إلى بني عمومتهم المحاصرين في "شكار كادل"، ويوحي طول قبره المناهز لثلاثة أمتار على قوته البدنية التي تروى عنها قصص شبيهة بالأساطير.

الآخرين، حيث كان كُلَّما وُلِدَ له ابْنٌ يصْدَعُ في أُذُنِه اليُمْنَىٰ، بتكبيراتِ الأذَانِ، وتَعاويذِ القُرْآنِ، ويُدَنْدِنُ في أُذُنِه اليُسْرَىٰ أبياتا شِعْرِيَّةً يرْتجِلُها في حقِّ ذلك الوَلِيد، لتنْدَسَّ نفحاتُ الإيمان، وإيقاعات الأوْزان، مع أوَّل قَطرات لِبَانِ الأمِّ، التِي كانَ أخَواها شاعريْن، فعِنْدَما **رُزِقَ ابْنَه البِكْرَ (سيدي محمد) لقَّبَه "سِيدِيَّ"** تَيَمُّنًا باسْم الشيخ سِيدِيَّ، ورغم أننا لمْ نعْثرْ على الشعْر الذي اسْتقبله به، فقد كان شاعرَ كنْتة الغرْبيين بإجْمَاع، وكان فارسًا، وقاضيا، وكانَ قلَمَ "البَيان والتبْيين" لدَىٰ جَماعتِه، ولِسَانها الناطِقَ باسْمها.

ثم رُزِقَ بابْنه **"الشيخ أحمد"** فتنبَّأَ لهُ شعْريا، بما سَيَكونُ له من زَعَامَةٍ سَيَاسِيَّةٍ، ومشْيَخة روحية، ومَكانة علْمِية وشعْرية، وكأنّ **"آدَبَّ"** يُقَلِّدُ شيْخَه **الشيْخ سيدِيَّ**، فِي قِرَاءَتِه لِمَا ينْطوِي ويُصَانُ فِي غيْبِ النَّاسُوتِ؛ فيقول:

إليكَ تُـضْرَبُ أكْبَـادُ العَظامِـــيسِ يَـا شـيْخُ أحْمَـد نِـبْرَاسُ النَّبَـاريسِ
تَسْـعَى إليْـكَ رُوَّادُ الحَـاجِ مِـنْ بُعُـدٍ فَيُفْلِحُـــونَ.. بتخْويـلٍ.. وتقْـدِيسِ

ثم وُلِدَ له **"محمد"** الذي لقبه بـ **"الحوَار"** استلهاما لما يُسَمَّىٰ في الثقافة الشعبية بـ "حوار الجنة"، فخاطبه أيضا:

إن الحـــوارَ محمَّـــدًا سيَسُـــودُ ولقوْمِـــه وعشـــيرِه ســـيَقُودُ

المهمُّ أنَّ أبناء "آدبَّ" كلهم كانوا شُعَرَاءَ ونُثَرَاءَ بارعين، مثل سَلَفِهم، وقد تركوا **الشِّعْرَ والأدب** كلِمَتيْن باقيتيْن في عَقِبِهم، ما استمر النسبُ.. أبْناءً وأحْفادا...باسْتثناءِ رابِعهم سيِّد محمد بن آدبَّ، الذي كان هو نفْسه شاعرًا، غيْر أنه لمْ يتركْ عقِبا[1].

[1]- لديه قطعة شعرية استشفائية لنفسها، مطلعها:

الحمـــدُ لله مُنْشـــي الخَلْـــقِ إنْشـــاءَ بَانِيـــه مـــنْ عَـــدَمٍ، مُفْنِيـــهِ إنْ شـــاءَ

وإلى هذا البعد الوراثي لجدل **النسب والأدب**، أشار الشاعر **محمد بن الحابوس** المعروف بمحمد "مِرّ"، بترقيق الراء، حيث يتخلَّصُ إلى مدحه **لسيدي بن آدب** بقوله:

فـ "سِيدِيَ" لا يُسابَقُ في مَجالٍ ... مِنَ العِلْمِ الصَّحِيحِ، وبذْلِ مال
ونحْوٍ حازَه، لوُجُودِ فتْحٍ ... كفَاهُ عن التّعَلُّمِ والكلالِ
وشِيمَتُه البَلاغَةُ في المقالِ ... ويُسْقَى العلْمْ كالعذْبِ الزُّلالِ

كما أشار إلى ذلك الشاعر: **عبد الله بن سِيدِي الدوبلالي**، حين مدح شيخه وصديقه: **محمد بن الشيخ أحمد بن آدب**، فقال:

كريمٍ متَى تُلْمِمْ بساحتِه تَجِدْ ... سَلاقةَ قُسٍّ، أوْ بَلَاغَةَ مَعْبَدِ
وبَسْطًا، وتوْسِيعًا، على مَنْ تَنُوبُهُ ... نَوائِبَ دَهْرٍ بالمَعِيشَةِ أنْكَدِ
وعلمًا حبَا ربُّ البَرِيَّةِ سَيِّدا ... تَرَوَّى، بلا كدٍّ، بِهِ، وَتَجَهُّدٍ
تَوَارَثَ ذَا مِنْ عهْدِ آبائِه الأُلى ... به عُرِفُوا مِنْ كلِّ غوْثٍ مُجَرَّدِ
ومِنْ عالمٍ، عَلَّامَةٍ، مُتَفَنِّنٍ ... وبحْرٍ خِضَمٍّ في السّمَاحَةِ مُزْبِدِ
وفضْلِ أَبِيٍّ مِنْ أبيِّين سادةٍ ... أُلِي كَرَمٍ قدْ خُوِّلُوا كلَّ سُؤْدُدِ
فما ارْتَابَ في تَقْدِيمِه وارْتِفاعِه ... أخُو نظَرٍ، كلَّا، ولمْ يَتَرَدَّدِ
نَمَتْه كَرَامَاتُ البُسَيْفِيِّ شهْرةً ... إلى بيْتِ عِزٍّ بالفخَارِ مُشَيَّدِ
ومجْدِ بني حَيْبَلَّ إنْ كنْتَ جاهلًا ... إلى ذرْوَةِ البيْتِ الشَّرِيفِ المُصَمَّدِ

وبعْد هذه الحفْريات الخاطفة في عمْق الترابُط بيْن "**أهْل آدبَّ**" و"**الأدب**: نثرا وشعرا" تبدو ثنائية: **النسب والأدب** في عنوان هذه الفقرة مسوغة، لا اعتساف فيها، ولا مجازفة، فحتى اسم هذه الأسرة، مشتق من صميم مادة "**الأدب**"، بكل ما تعنيه من **الأدب** النفسي، والدرسي، ومن **المآدب** الروحية، والمادية، حتى لكأنهم المعنيون بقول الشاعر الجاهلي: **طرفة بن العبد**:

نحْــن في المَشْــتاةِ نَــدْعُو الجَفَــلَى لا تــــرَى الآدِبَ فِينـــا ينْتَقِـــرْ.[1]

وباستحضار البعدين: الفني والخلقي **للأدب** يتضّحُ مدى الترابط العضْوِيّ بيْن شطري العنوان الكبير لهذه المقاربة: **"المقاومة الأخلاقية"**، و**"أدبيات أهل آدب"**، فذلك النوع من المقاومة يليقُ بالفرْسان، الشعراء، العلماء، المُرَبِّين، وهذا ما سَنتلمس أصداءه وتجلياته عبر مُدَوَّنَة القوم، لاختبار صلابة أطروحة العنوان.

[1]- **ديوان طرفة بن العبد، شرح الأعلم الشمنتري**، تح: درية الخطيب، المؤسسة العربية للنشر، بيروت، 2000م، ص 74.

ثامنـــا

تجليات المقاومة الأخلاقية

بعْد تأسيس أطروحة المَوْضوع، وتحْليل بنْيةِ العنْوان، تفْكيكا وترْكيبا، حانَ لنا اسْتجلاءُ تجلياتِ شواهِده، الدالة على مَقاصِده، من نُصوص "شعْر أهْل آدبَّ، وفُصُوص أدَبِيَاتهم العامّة، عبْر النقاط التالية:

أ- مقاومة الذات: صراع الإنسان والشيطان

لقد أدركَ القوْمُ - بترْبيتهم الروحية العريقة- أنَّ معركة بناءِ الشخصية السَّوِيَّةِ، وتعْزيز السلوك المستقيم، تبدأ من داخل كيْنونَة الإنْسان، قبْل أنْ تشرعَ أسْلِحتها إلى الخارج/ إلى الآخر، وهكذا نجد **عبد القادر (آدب) بن سيد الأمين،** رب هذا البيت، يقدم نفسه **لشيخه الشيخ سيدي،** في مستهل رسالته إليه، باعتبارها (**ممَّن طغتْ به نفسُه** فألقتْه في مَهَاوِي الضلال، وغَلَبَه شَيْطانُه فصَدَفَ به عن طريق الرِّجال أهْل الكمال.

ومَلَكَهُ هَوَاهُ، فأدْخَلَه فيما يُسْخِطُ عليْه مَوْلاهُ، وتمَكَّنَ منْ قلبه حُبُّ الدُّنْيَا فامْتَلأَ من العُجْب، والسمعة، والرِّيَاء، وغير ذلك وغير... ممَّا لا يُحيطُ به إلا العليمُ الخَبير، العبيدُ الفقير الحقير، الذي هو في أيدي ما تقدمَ ذِكْرُه من الأعْداء أسير: **عبد القادر بن سيد الأمين،** خلَّصَه الله بجاهكم من أسْر النفس، والهوى، والدنيا، واللعين)[1].

[1]- هارون: نفسه، ص 96.

ويتضح في بسطه لأهداف رحلته إلى شيخه، مدىٰ إدراكه لأن جُلَّ الأخلاق، غرائزُ طبيعيةٌ مستحكمةٌ في كينونة الإنسان، لكنه -في المقابل- **يعلن رغبته واستعداده الروحي لاكتساب الأخلاق الفاضلة،** وإيمانه بمدىٰ فاعلية التَّخَلُّق، والتنشئة، والتربية، علىٰ يد المعلمين، والأشياخ، إذا صاحبها التوفيق الإلهي، الذي يعتبر هو الفيصل الحاسم أولا وأخيرا، **فهو يخاطب شيخه،** قائلا:

(**لكنَّ الله يزيلُ الأشياءَ من مَجالِها،** بخَلْقِ أضْدادِها في مَحَالِّها، فيزيل نارَ الشُّحِّ ويُخْمِدُها بمَعِين الإيمان...

وكذلك الغَضَبُ يَخْلقُ مَكانَه الحِلْمَ، ويخلقُ العِلْمَ مَكانَ الجَهْلِ، والنُّورَ مكانَ الظلْمة والرِّقَّةَ مكانَ القسْوَة، إلىٰ هَلُمَّ جَرّا.

وقلَّما كانَ هذا إلا بواسِطَةِ نَبِيٍّ، أو وَلِيّ، وقد لجأتُ إلىٰ الله، ثم إليكم متوجِّها بكم إلىٰ أشياخكم، ثمَّ بكمْ إلىٰ رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم، ثم بكم إلىٰ الله أنْ يفتحَ علي في العِلْمِ والحِلْمِ والحِكْمَةِ **وأنْ يُوفِّقَنِي للخدْمة،** وأنْ يجعلَ حاجِزًا بيْني وبيْن المَعْصِيةِ، وأنْ يصحبَني بلُطْفِه الجَمِيل في الدنْيا والآخرة، وأنْ يأخَذنِي عنِّي إليه، ويُرغبَنِي فيما لديْه، وأنْ يُعَرِّفَني مَحَلَّ القرْب، ويجْعلنِي أقْرَبَ من القرْب.

ثم إنِّي - وإن كنتُ كما تعلمُ سيِّدي، فلا عَلَيَّ، بل لا بدَّ لِي منْ أنْ تتفضَّلَ عليّ بنظْرَة يتسِّعُ بها صدْري، وَيُطْلَقُ بها من قيودْ **النفْس والهوى والشيطان والدنْيا**- أسْري، فتُرْسِلَ علَىٰ نَار **شُحِّي** مِنْ مَعِينِ أنْوار إيمانِك؛ فيزيلها إذ لا يجتمعان، وتفيضُ علىٰ نَارِ **غَضَبي** من ماء حِلْمِكَ فيُطفئها، وتسْكبُ علىٰ... **جَهْلِي** العظيم وابِلًا من فاخِر عُلومِكَ فيُذْهِبه، وتنشرُ من أنْوارك حُلَّةً ضافيةً علىٰ كثِيفِ ظُلمات جَوِّ باطِني فتنْجَلِي كمَا ينجَلِي غسَقُ الليْل إذا طلعتِ الشمس.

وتسْري من رِقَّتكَ وخَشْيَتِكَ في سُوَيْداءِ قلبي القاسي، فيصيرُ أرَقَّ قلْب وأصْفاهُ، وأشْفقَه من مَوْلاه وأخْشَاهُ، إلى غير ذلك مما يطول ذِكْرُه، ويحيرُ[1] فيه مَنْ تَتَبَّعه ولوْ كانَ فطينًا فِكْرُه، مما يكْفي فيه علْمُ الله، ثُمَّ علْمُكم سيِّدي ذا الجاه.

وكوني **لا أصبر طبْعٌ**، كما تقدَّم، **وأمَّا أنَا** فأخْتَارُ **الصَّبْرَ** والحِلْمَ والظفر، والإنسان لا حِيلةَ له في زوال الطبْع والجِبِلَّةِ إلا بتوفيقٍ منَ الله ذِي الأسماء الحُسْنى، وهِمَّة عارف إنْ أقْسمَ على الله أبَرَّ قسَمَه، كما قيلَ: "العارفُ إذا أرادَ أغْنَى"، وقال الشاعر:

وكلَّ امْـرِئٍ يَبْغـي السـمَاحةَ والنَّـدَى ولكــنَّ طبْــعَ المــرْءِ للمَــرْءِ جَالِــبُ

والآنَ -يا سّيِّدي- لا بُدَّ من أحد أمريْن: إمَّا أنْ تأذنُوا لِي في الخروج إلى الأهل، لكني لا أقبله إلا أن تشيعوني بجميع حوائجي، وإما أن تنظروا إليَّ نظرةً بمُجرَّدِها يُشْفَى قلبي من جميع ما فيه من الأدْواء، ويمْتلئ عِلْما، وحِلْما، وصِدْقا، وإخْلاصا، وتقْوى؛ فيكون عنده الذمُّ، والمدْحُ، والحُبُّ، والبُغْضُ والعطاءُ، والمَنْعُ، والضرُّ، والنفْعُ، على حَدٍّ السواء)[2].

والحقيقة أن هذه المقاومة الذاتية في مجاهدة النفس، وترويض نوازعها، وتكييفها مع السلوك الأمثل، والخلق الأفضل، تصبح أصعب، حين يكون ميدانها **الأرواح النزاعة** إلى الفتوة، لا سيما بالنسبة لمَنْ تتركَّبُ نفْسِيتهم من **نَوَازِع** الشاعر العاشق-بفِطْرَتِه- للجَمَال، بكلّ تجلياته، **ورَوَادِع** العالِم الصُّوفيّ الناسِكِ، وعلى ضوْء هذا التحْليل كانتْ نُصوصُ عِتَابَ النفْس، وتأنِيب الضَّمير "تيمة" حاضرَة بقوَّة في مُدَوَّنَةِ القوْم.

فهذا **محمد (ويقي) بن سيد الأمين**، أخو **آدب**، وأبوه الروحي، يقول في هذا الصدد:

---

[1]- في **تاج العروس**، واستعمَلَ بَعْض فِي مُضَارع {حَارَ} يَحِير كَبَاع يَبِيع، بِنَاء على أَنَّه يائِيُّ العَيْن...

[2]- هارون: نفسه، ص 97- 98.

فُــؤادِيَّ مــنْ ريْــنِ المَــآثمِ مُسْــوَدُّ وقسْــوَتُه مــا مِثْلَهَــا الحَجَــرُ الصَّــلْدُ
ومَهْمَا عَقَــدْتُ العــزْمَ في فعْــلِ قُرْبَــةٍ تُنَــوِّرُهُ يَنْحَــلُّ مــنْ عَزْمِــيَ العَقْــدُ
وإبْليسُ بــالإغْوَاءِ والــنفْسُ والهــوى ...عَــنْ مَــنْهَجِ الرُّشْــدِ قــد جَــدُّوا
ومــا لِي مــن طــوْقٍ أطِيــقُ لــه بهــمْ دِفَاعًــا ومَــا لِي مــنْ دِفــاعِهُمُ بُــدُّ
فلــــم أرَ لِي فِي ذاكَ غــــيْر توسُّــــلِي بمن همْ لتفْـريجِ الشـدَائدِ قـد عُـدُّوا
أولئكَ أشْـيَاخِي، الـذِي مـن أكُفّهِـمْ يُغَاثُ الوَرَى طُرًّا مَتَى أخْلَفَ الوعْـدُ

وعلى منزعه سار أخوه عبد القادر "آدبَّ"، ربُّ "البيْتِ الشِّعْريّ" العِلْمِيّ، يقرَع أجْرَاسَ الإنْذار لنفْسه، قبْل أنْ يقْرَعها لغيْره، قائلا:

ألا أيُّهــا العبْــدُ.. الكَسِــيرُ.. المَهِــيضُ ألمْ يَــانِ-بعْد الشيْبِ- منْكَ.. نُهُــوضُ؟!
ألمْ يَــانِ أنْ تسْــلُو.. ولِلــنَّفْسِ-بعْــدَما طغتْ، جَهْدَها، واستخْدَمَتْكَ- تَرُوضُ؟!
وتأخُذَ-منك- الجَهْدَ.. دَأبًا.. مُشَــمِّرًا ومَالــكَ-في ليْــلِ الــتَّمامِ- غُمُــوضُ!
رَأيْتُــكَ لم تَسْــتَحْي بِيضًــا، تلامَعَــتْ برَأْسِكَ.. أنْ يَقْــتَــادَ قَلْبَــكَ بِــيضُ!
فَهَيِّــئْ.. دَواءً.. حمْيَــةً.. وعَقائــدًا تَنَــالُ -بِهــا- بُــرْءً.. فأنْــتَ مَــرِيضُ!
فبَــادِرْ ولا تشْــغَلْكَ "ســوْفَ" ولا يُلْهِكَ الطَّرْفُ الكَحِيلُ الغَضِيضُ!

هكذا نرى مَراصِدَ الوالد، تتوجَّهُ مَراياها العاكسة إلى ذاتِه، -قبْل غيْره-، وتشخِّصُ مأزَقها الصعْبَ، في مَقام **"النفْس اللوَّامة"**، مُنْصَرِفَة عن **"النفْس الأمَّارَة"** المَرْهوبة، إلى " **"النفْس المُطمئِنَّة"**، المَرْغوبة، وعلى هذا المَنْهج تبعَ البَنُون أبَاهم، و"من شابهَ أباهُ فما ظلم"، حيث وجدنا هناك نصا -في هذا السياق نفسه- **عانق فيه صوتُ "سِيدِيّ"، صوْتَ "آدبَّ"**، حين قام الابنُ بتخْميس أبْياتِ الوَالد، وعنْدما أصبح "سِيدِيّ عميدَ الأسْرة، كانَ أخُوهُ الشيخ أحمد في ريعان فُتُوَّتِه، فبَدأ حِوارُهما – شِعْرًا- بيْن "الشيخ والمُريد"، حوْل "المُقاومة الأخلاقية" ذاتها، إذ كان الفتَى يسْتشعِرُ بعْضَ جُنُوح نفْسه، إلى شهَواتِها، شاكِيا ذلكَ إلى أخِيه الأكبَر شيخه:

يَعُودُ السلامُ، الحافِلُ، الأوْفَرُ، الأسْنى ... إلَى سَيِّدِي "سِيدِيَّ" وَالِدِيَ الأحْنى
ثِمَالَ اليَتَامَى.. فهْوَ بَهْجَةُ عصْرِه ... وطلَّاعُ تلِّ المَجْدِ.. وهْوَ لـه مَغْنَى
وشَافِي مُرُيدٍ.. مِنْ مَرِيد.. بنظْرة ... ومَرْمَى عِصِيِّ السيْر الأقْصَى أوِ الأدْنَى
بَأَنِّي لمْ أرْدُدْ.. لِنَفْسِيَ.. عنْ هوًى ... ولمْ -سَيِّدِي- يَرْدُدْ لَهَا رَبُّها الأعْنَى
وأنتمْ.. إذا تاقَتْ تَرُومُونَ ردَّهَا ... وقوْلُكُمُ هَذَا كـ "الأعْوَرِ قدْ جُنَّا"![1]

وقد كانت **الوصفة الشافية قصيدة "سيدي"**، التي فعلتْ فعْلَها الخَارِق، **فِي نفْسِيةِ الشيخ أحمد**، وفِي سُلوكِه، حيث سُمِّيَتْ هذهِ القصيدةُ فِي أوْسَاطِ تَدَاوُلِهَا: بـ **"التربية"**، وهي نونية من الطويل:

عَتَبْتُكَ، فاهْنأ، لا عِتَابَ.. ألا فاهْنا ... ومأتاكَ -أيًّا كانَ- عنْدي هو الأهْنَا
أُحِبُّ الذِي أحْبَبْتَ.. غَيْرَ مُحَرَّمٍ ... وأبغضُ ما أبْغضتَ بالحِسِّ، والمَعْنَى
وأبذلُ.. مَالِي.. في رضاكَ.. وكلَّما ... حَمَيْتكَ.. لمْ أمْنَعْهُ حِرْصًا.. ولا ضَنَّا
ولكن، لأمْرٍ.. لمْ أُكَلَّفْ.. بنشْرِه ... مَغَبَّتُه محْمُودَةٌ.. لَنِ اسْتَأْنَا
وما خِلْتُ تصْرِيفي لأمْرٍ.. مُخَالِفًا ... هوَاكَ.. كمَا عنْدِي هَوَاكَ مُنًى حُسْنَى
وحَاشَى.. ويَأْبَى اللهُ.. تقليدَكَ الهَوَى ... وطَوْعَكَ قِتْلا، مُفْسِدًا، قَبْل أنْ يُثْنَى
فرُضْها، وذُدْها عنْ هواها.. وزَكِّها ... ولا تُعْطِها نَيْلًا.. تَنَلْ مَا بِه تُعْنَى!
لأنَّ بظَلْفِ النفْسِ.. عن شهواتِها ... يَنالُ الفَتى.. المَأْمُولَ -فِي اللهِ- والأَمْنا

[1]- لقد استحضر هنا قصة رجل من تميم كان أسيرا عند قوم، فسمعهم يتحدثون عن عزمهم على غزو قومه، فطلب منهم السماح له بإرسال رسالة إلى أهله، فاشترطوا لذلك أن يسمعوا الرسالة، حتى يتأكدوا من خلو محتواها من أي إنذار، فكان من ضمن وصاياه لهم:
"... وأن يعروا ناقتي الحمراء فقد أطالوا ركوبها ويركبوا جملي الأصهب... فلما وقفوا على الكلام.. قالوا جن الأعور بعدنا إذ لم نعرف له ناقة ولا جملا".... ثم دعوا أحد حكمائهم "فلما قصوا عليه القول قال أنذركم... والناقة الحمراء الدهناء، والجمل الأصهب الصمان، يقول اعدلوا عن السهل إلى الجبل..."
انظر: داود بن عمر الأنطاكي: **تزيين الأسواق في أخبار العشاق**، ص 191.

ولا عِــزَّ.. إلا بَعْــدَ إِذْلَالَ مُهْجَــةٍ ... ولا رَاحَةٌ -دُونَ العَنَا- ثَمْرُها.. يُجْــنَى
فتلْكَ سَبيلُ الحق.. قامتْ بقوْمِها ... ومَنْ لمْ يُقِــمْها.. لا يُقِيمُ لَهُ وزْنــا
وما حــازَ قَصْبَ السَّبْقِ إلا مُشَمِّرٌ ... قدَ آثرَ.. ما يبْــقَى.. على كل ما يَفْنَى
وأَلْقَى حُظوظَ الـنَّفسِ، ظِهْرِيـةً.. ولمْ ... يعرِّجْ على كأسٍ.. سقتْه.. له.. وهْنا
وضـمَّرَ طِـرْفَ العـزْم، لمْ يـثْنِ طَرْفَـه ... إلَى غيْرِ مَطْلُوبٍ.. أَمَامَ.. لَهَا اسْـتدْنى
وجَدّ سَبيلَ القَوْمِ.. لمْ يــأْلُ.. قاطِعا ... صَحَاصِحَها، والمَهْمَهَ القَفْرَ، والدَّهْـنا
تلاشَـى.. لدَيْهِ الكوْنُ.. ينْحُو مكوِّنـا ... فقدْ هَجَرَ الأَفْراحَ، واسْتَصْحَبَ الحُـزْنا
ولمْ يتَّخِـذْ -غـيْرَ المُهَـيْمِنِ- صـاحِبًا ... ولادُونَ ما يخْشَى -سِوَى ذِكْرِهِ- حِصْنا
هنالكَ.. يَحْـظَى.. بالذي هُـوَ آمِــلٌ ... ويَصْـحَبُه التَّيْسِــيرُ.. فِــيمَا لـه عنَّـا
وتصْــحَبُه -منْــهُ- العِنَايَــةُ.. كائِنــا ... له -في المَرَامِ- العيْنَ.. واليَدَ.. والأُذْنـا
وتُطْوَى لـه قُصْـوَى المَفَـاوِزِ.. مُلْقِيًـا ... عَصَا سَيْـرِهِ.. قد بُوِّئَ المَقْعَدَ الأَسْـنَى
على نحْوِ هذا، فانْحُ، إنْ كنْـتَ ناجِيًـا ... ولا تَرَ شأْنًا.. غيْرَ مَـا شَأْنُــهُ شـأْنا
لتبلـغَ أَقْصــَى مــا تُريـدُ.. وتقْتَفـي ... ورَاثَةَ مَنْ أَغْـنَى مُحِبَّيهِ.. مَـنْ أَقْــنى
عليْـه صَـلَاتِي.. مَحْـوَ ذنْـبٍ.. بتوْبَـةٍ ... ومَـا زهْزَهَـتْ أَرْوَاحُ شَـامِيةٍ غُصْــنَا

وهكذا استتب الشيخ أحمد - بعْدَ هذه القَصِيدة- على طريق "القوم"، مرتقيا "في مَدَارج السالكين"، حتى أصبح وريث أخيه "سيديّ"، في المشيخة، وتصدير المريدين، جاعلا من عتاب النفس، موضوعا لجملة من نصوصه:

وله هذه الميمية من البسيط:

عبْدٌ عَـلَا الشـيْبُ فَوْدَيْـهِ ومـا كتمَـهْ ... لــو كــانَ يُمْكِنُــهُ كتْمانُــهُ كتَمَــهْ
بــلْ لا بَقَــاءَ لليْــلٍ كــانَ حَادِيَــه ... صــبْحٌ مُنــيرٌ عليْــهِ نــاشرٌ عَلَمَــهْ
لَّــا رأى البِــيضُ بِيضًــا في مَفارِقِــهِ ... أَبَــيْنَ تكليمَــه، والسـقْمُ قـدْ كَلَمَـهْ
قد كانَ يأبَى -كَلامَـا- دلَّ كُـلِّ رَشـا ... وَاليَـوْم تمْنعُـه الأَرْشـا وَلَـوْ كَلِمَـهْ

فقـالَ، مُتَتَعجِبًـا: خُنْـتُنَّ؟ قُلْـنَ: أمَـا تَـرَى ابْـنَ دَايَـةَ عَزَّتْـهُ الأَنُـوقُ؟ فَمَـهْ
وكُـنَّ، إنْ زارَ، أو إنْ رِيءَ، مِـنْ بُعْـدٍ يُعْوِلْنَ، مِنْ شَغَفٍ، يُعْلِـنَّ: وَا سَـقَمَهْ
البِيضُ يُنْكِرْنَ مَا قد كان مِنْكَ، فخُضْ بَحْـرَ السُّـلُوِّ، وَذَرْ مـا كُنْـتَ مُغْتَنِمَـهْ
وابْكِ الشبابَ، ووصْلُ البِيضِ مَأْتَمُـهُ أقِمْهُ -وَيْكَ- وَخَلِّ العَـيْنَ مُنْسَـجِمَهْ
بل بالبكـاءِ أحَـقُّ الـذنْب، فابْـكِ لـهُ وعَدِّ عـمَّا مضـى، لا ترْتكِـبْ زِيَمَـهْ
نُـحْ نـوْحَ أمِّ وَحِيـدٍ إذْ تصـابُ بـه ودَمْعكَ، الدَّهْرَ، منه اسْتَمْطِرَنْ دِيَمَـهْ
فـالعمْرُ ولَّى، وليْـلُ الجهْـلِ غيْهَبُـه عـاضَ البَصـيرَةَ مـن أنْوارِهـا ظُلَمَـهْ
أضـعتَ عمْـركَ، في غَـيٍّ، وفي سَـفَهٍ مَنْ ضَيَّعَ العُمْرَ فِي البُطْلَانِ قـد ظَلَمَـهْ
آنَ ارْعِواؤكَ، إذْ حانَ ارْتِحالُـكَ، عـنْ دُنْياكَ، حالُكَ مَـنْ سَـوَّاكَ قـد عَلِمَـهْ
فمَنْ لعاصٍ عـلى العصْـيانِ مُعتكـفٍ وأسُّ رُكْنِ التُّقَى بالذَّنْبِ قدْ هَدَمَـهْ؟
ضارٍ، بـمَا ضَرَّ مِـنْ نـوْمٍ ومـنْ كسَـلٍ مُغْـرًى بـما غَـرَّ ممَّـا يقْتضِـي نَدَمَـهْ

والحقيقة أنَّ هذا هو **الموضوع الأثيرُ** عند جميع أفراد **"بيْت الشعر"** هذا، **فمُحمد لحوار بن آدبَّ**، شقيقُ سابقيْه، يرفعُ أنَينَ روحه -في مَقام العُبودية ذاتِه- شاكيا إلى الله كثافة رَيْنِ الذنُوب، على مِرْآةِ نفْسِه، مُشْفِقا من هاجسِ القطيعةِ، عن لذيذِ صِلَتِه بربِّه:

عبْدٌ.. شَـجَاهُ.. لَمـا رَأى.. مـن حالِـهِ حـذَرُ القطيعـةِ مـن لذيـذِ وِصـالِهِ
عبْدٌ.. تَرَاكَـمَ.. مِنْ كَـثَافَةِ ريْـــنِه بحِجـاهُ.. جَالِـبُ حتْـفِه.. ووَبَـالِهِ
وبصَـدْرِه- ممَّـا يُجِـنُّ مِـنَ الأسَـى زَفَـرَاتُ ذِي فـزَعٍ، مَـرُوع، والِـهِ
فإذَا تَرَاكَمَـتِ الهُمُـــومُ.. فحَسْبُه ربٌّ يَـرَى مَـا لا يُـرَى مـنْ حَالِـهِ
يَدْعُو، ويَرْجُـو أنْ يُقابَـلَ.. بالَّـذِي يَعْـتَـادُ مـن إفْضـالِه.. ونَوَالِـهِ
مُتذلـلا، مُتبَـتِّلا، مُتَنَـصِّلا مما جَـناهُ، بقـالِهِ، وفعالِـهِ
ومُـؤَمِّلا نيْـلَ المُنَـى.. مُسْـتَنْفِعا بجَـلالِه، وجَمـالِه، وكمـالِهِ
مُسْتَشْـفِعا، بشـفيعِنا طـه الرِّضـا مسْتَمْسِـكا، بالغـرْزِ مـن أذْيَالِـهِ

صـــلَّى عليْـــه إلهُـــهُ.. في حزبـــه وعـــلى الأفاضـــلِ، صَـــحْبِهِ، في آلِـــه

ثم يواصل تضرعاته:

من سُوءِ ما عملتْ نـــفْسِيَّ، مُكْـتَرِبٌ فرِّجْ كروبي، إلاهـي، فـارجَ الكُـرَبِ
واغفِرْ -إلاهي- ذنوبا، كنت أفْعلُهـا واصفحْ، وسامحْ، عن اللذاتِ، والطربِ
وأوْلِني -منكَ- أسرارَ العلـومِ، بـلا كـدٍّ، ولا تَعَـبٍ، يـا وَاهِـبَ الطَّلَـبِ
والله يقضـــي -بـــلا رَيْـــثٍ-..... بجـاه أحمـدَ- مـا أرْجـوه، مـنْ أرَبِ
عليـــه مـــن صـــلوات الله أفْضـــلُها من ساد- في البدْء، ثم الختْم، كَلَّ أبِي

وهكذا يبدو أن شبابَ هذه الأسْرة ينْزَعُ إلى الفُتُوَّةِ، بكلِّ تجلِّياتِها، ولكنَّه سرْعانَ ما يُدْرِكُ **"أنَّ منْ تَّقِي اللهَ البَطَلْ"**.

ب- جدل الغضب والأدب

الغضب - غالبا- مناف **للأدب**، بمفهومه العام الذي تتأطر هذه الأسرة ضمن مُسَمَّاه ومَعْنَاهُ، ومجاهدة القوة الغضبية في الغرائز الإنسانية، تدخل في صميم مفهوم **"المقاومة الأخلاقية"**، عموما، التي هي -أيضا- جوهر التقويم السلوكي للرسالات السماوية، وللإسلام خصوصا، ديننا الحنيف؛ المشتق اسمه من السلام، والمسالمة، إذ كل التعاليم الأخلاقية تدرك أن القوة الغضبية قد تتحول إلى إعصار مدمر، إذا لم يُتَحَكَّم في طاقتها الانفعالية الهوجاء، بضوابط وكوابح أخلاقية صارمة، ولذلك يروى عَنِ الْأَحْنَفِ بْنِ قَيْسٍ، عَنْ عَمٍّ لَهُ، أَنَّهُ أَتَى رَسُولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: **قُلْ لِي قَوْلًا يَنْفَعُنِي وَأَقْلِلْ لَعَلِّي أَعِيهِ، قَالَ: "لَا تَغْضَبْ"، فَعَادَ لَهُ مِرَارًا، كُلُّ ذَلِكَ يُرْجِعُ إِلَيْهِ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أَنْ لَا تَغْضَبْ)**[1].

[1]- **مسند أحمد**: ط/ الرسالة: 38/ 231.

وفي رواية أخرىٰ يعلق الصحبي المخاطب هنا:

(فَفَكَّرْتُ حِينَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صلىٰ الله عليه وسلم مَا قَالَ، **فَإِذَا الْغَضَبُ يَجْمَعُ الشَّرَّ كُلَّه**)[1].

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو، أَنَّهُ سَأَلَ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **مَاذَا يُبَاعِدُنِي مِنْ غَضَبِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ؟ قَالَ: "لَا تَغْضَبْ "**[2].

وعلىٰ ضوء هذا حدد **عبد القادر "آدب" بن سيد الأمين، البوسيفي** أكبر حافز له علىٰ الرحلة إلىٰ حضرة الشيخ سيدي، بأنه الشكوىٰ من **"الغضب"** المستحكم في سلوكه، متشابكا مع عزة النفس، وعدم تحمل الأذية، رغم إدراكه لخطورة ردَّاتِ فعْله علىٰ **"أَدَبِيَّتِه"** المرغوبة، فهو يخاطب شيخه:

(**ثم لتعلموا -سيِّدي-** ولوْ كنتمْ بالحال أدْرَىٰ، وأعْلىٰ مَنْزِلة وقدْرا- أنِّي مع ما أعْلمُ من خبْث نفْسي، وغلَبَةِ هوايَ وشيْطاني ورِجْسِّي، بالغٌ من شِدَّة **الانتصار للنفْس**، وعدَم التحَمُّل لقليل من **أذية أبناء الجِنْس**، مبْلغا لا أُمَيِّزُ فيه -**إذا غضبتُ**- بين الحرام والحلال، ولا بين القبيح والجميل من المقال.

وهذه المَسْألة هي مِن جُلّ **ما حَمَلَني على الخُروجِ منْ بلادي**، وعن أهْل وِدَادي، مع ما هو بداخلي من خُبْث الطوية، والجهالة وعدم المَزِية، فقصدتكم -سيدي- لزوالها وزوال غيرها من الخلال الذميمة، فتجعلوا مكانَها أوصافا حميدة، وأنتم -ولله الحمد-... "أهل التكرُّم والفضل"، قال الشاعر:

ومَـا كنـتُ أهْـلا للوصـالِ، وإنَّـما حُمَـاةُ الحِمَـى أهْـلُ التكـرُّمِ والفضْـلِ

والغضبُ الذي ذُكِر -سيدي- آنِفًا، وَغَيْرُه من الأوصاف المذمومة شرْعا وعادة- طِباعٌ غريزية، والطباعُ تَزولُ قبْلها الجِبال، من المَحَالّ، كما روي: "إذا سمعتَ بجبلٍ زالَ عنْ مَحلِّه فلا تنكرْ، وإذا سمعتَ بطبْعٍ زالَ عن صاحِبهِ فكذِّبْ"

---

[1] – **مسند أحمد**: ط/ الرسالة، 38/ 236.

[2] – نفسه، 25/ 330.

لكنَّ الله يزيلُ الأشياءَ من مَجالِها، بخَلْقِ أضْدادِها في مَحَالِّها، فيزيل نارَ **الشُّحِّ** ويُخْمِدُها بمَعِين الإيمان ...

وكذلك الغَضَبُ يَخْلقُ مَكانَه الحِلْمَ، ويخلقُ **العِلْمَ** مَكانَ الجَهْلِ، **والنُّورَ** مكانَ الظلْمة **والرِّقَّةَ** مكانَ القسْوَة، إلى هَلُمَّ جَرّا .

وقلَّما كانَ هذا إلا بواسِطَةِ نَبِيٍّ، أو وَلِيّ، وقد لجأتُ إلى الله، ثم إليكم متوجِّها... بكم إلى الله أنْ يفتحَ علي في العِلْمِ والحِلْمِ والحِكْمَةِ، وأنْ يُوفِّقَنِي للخدْمة، وأنْ يجعلَ حاجِزًا بيْني وبيْن المَعْصِيةِ، وأنْ يصحبَني بلُطْفِه الجَمِيل في الدنْيا والآخرة، وأنْ يأخَذنِي عنِّي إليه، ويُرغبَنِي فيما لديْه، وأنْ يُعَرِّفَني محَلَّ القرْب، ويجْعلنِي أقْرَبَ من القرْب...

وكوني لا أصبر طبْعٌ، كما تقدَّم، وأمَّا أنَا فأخْتَارُ الصَّبْرَ والحِلْمَ والظفر، والإنسان لا حِيلةَ له في زوال الطبْع والجِبِلَّةِ إلا بتوفيقٍ منَ الله ذِي الأسماء الحُسْنى، وهِمَّة عارف إنْ أقْسمَ على الله أبَرَّ قسَمَه، كما قيلَ: "العارفُ إذا أرادَ أغْنَى"...

والآنَ -يا سّيِّدي- لا بُدَّ من أحد أمريْن: إمَّا أنْ تأذنُوا لِي في الخروج إلى الأهل، لكني لا أقبله إلا أن تشيعوني بجميع حوائجي وإما أن تنظروا إليَّ نظرةً بمُجرَّدِها يُشْفَى قلبي من جميع ما فيه من الأدْواء، ويمْتلئ عِلْما، وحِلْما، وصِدْقا، وإخْلاصا، وتقْوى؛ فيكون عنده الذمُّ، والمدْحُ، والحُبُّ، والبُغْضُ والعطاءُ، والمَنْعُ، والضرُّ، والنفْعُ، على حَدٍّ السواء)[1].

ونتيجة لإلحاح الضجر من "**الغضب**"، على نفسية **آدب**، يستدرك بعد إنهاء رسالته، إلى شيخه، التي يريد فيها الفتوى التربوية، الصوفية، بوضع ذات المضمون، على شكل سؤال يطلب الفتوى الشرعية الفقهية، فيقول:

[1] – هارون: مصدر سابق، ص 97– 98.

(**سُؤالٌ عن شخْصٍ سريعِ الغضَبِ**، هل الأفضل له اعْتزالُ الناسِ؟ أو مُخالَطتُهم؟.

وعلى أنَّ الأفضل له أحد الأمرين؛ فما الوجه الذي ينبغي له أن يستعمله في ذلك الأمر؟.

وهلْ له إنْ **تغاضبَ** مع شخْص آخر أنْ يهجُره...، أولا يجوز له فوق الثلاث، كما هو المشروع؟.

ألتمسُ منكم يا سيِّدي الجواب عاجلا، فإن **سُرعة الغضب شِيمتي**، مع **سُرعة زواله**، فأبقى متحيرا في الهجران، وغيره، فأيهما حكمي؟ فكلما أردت الهجران خشيتُ ما فيه من الإثم، وكلما رمت غيره خشيت الفتنة، فما الحكم؟"[1].

وقد كانت **وصفة الشيخ سيدي**، لمريده عبد القادر (**آدب**) بن سيدي الأمين، عبارة **عن مُرَكَّبٍ روحي** يصدق عليه - فعْلا- وصف **"كيماء السعادة"**، الذي وسم به **التقوى**، حيث رَكَّبَ علاجَ مرض **الغضب**، من أربعة عناصر ناجعة، هي: **التقوى، والمَرْحَمَة، والحق، والصبر**، فكتب له، وصية ملحقة بإجازته إياه:

(**ثم إني موصٍ نفسي وموصيك** - أيُّها **الابن الأبَرُّ** الحاذق، **والمريد الأغرُّ** الصادق- أخذَ الله بناصيتي وناصيتك إليْه، وقادني وإياك إلى حضرته، قوْدَ الكِرامِ عليه-**بتقْوَى الله** في السر والجهْر، وبما نَدَبَ - سبحانه- إلى التواصي به في مُحْكَم الذِّكْر، من **المَرْحَمَةِ** ومِنَ **الحَقِّ والصَّبْر**.

فالتقْوى رأْسُ كلِّ حِكْمَة، وجِمَاعُ كلِّ خيْرٍ ونِعْمَة، ومن جُمْلة أفرادها ما ذَكَرْنا من بَعْدها، وهي وصيةُ ربِّ العالمين للأولين والآخرين؛ فقال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ**﴾[2].

---

[1] - هارون: مصدر سابق، ص 99.

[2]- **قرآن كريم**، سورة النساء، الآية: 131.

وقد ورد في الأمر بها، وحُسن الثناء على المُتَّصِف بها، وشِدَّةِ الاعتناءِ بإسْناءِ جَزاء المُتَعلِّقِ بسبَبِها -من الآيات والأحاديث- ما لا يُحصى، ولا يُستقصَى فقد قال الله عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ ﴾[1]. وقال تعالى: ﴿ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ ﴾[2]، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: (الكرم التقوى).

وقال صلى الله عليه وسلم لبعض أصحابه: «أوصيكَ بتقْوى الله، فإنها رأسُ الأمر كله».

... **والحاصل أنها كيمياء السعادة**، وسبب يوجب لذويه الحُسْنى والزيادة، ومعنى التقوى: خوف العبد من ربه وباريه، والتزام طاعته وترك معاصيه.

وإن شئت قلتَ: هو امتثال المأمورات، واجتناب المَنْهِيَاتِ، ظاهرا وباطنا، وإنْ شئتَ قلتَ: هو اجتناب كلما يبعد عن الله تعالى.

وأمَّا المَرْحَمَة فقد أثْنَى الله تعالى على الصحابة بها؛ فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡ ﴾[3]؛ أي يرحم كبيرهم صغيرهم، كما يوقر صغيرهم كبيرهم.

والتوقير: رحمة في إعْظام، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «إنما يرحم الله - من عباده- الرحماء»، وقال عليه السلام: «ارحموا من في الأرض، يرحمكم من في السماء».

وبالتراحُمِ تحصلُ الصِّلةُ الواجبةُ بين أولي الأرحام، وتندفع القطيعة، وتكون النصيحة بين إخوان الإسلام، التي هي مأمور بها، كما في قوله صلى الله عليه وسلم: «الدينُ النصيحةُ، قالوا: لمنْ يا رسول الله؟ قال: لله، ولرسوله، ولكِتابِه، ولأئمة المسلمين، وخاصتهم، وعامتهم».

---

[1]- **قرآن كريم**، سورة آل عمران، الآية: 102.

[2]- **قرآن كريم**، سورة الحجرات، الآية: 13.

[3]- **قرآن كريم**، سورة الفتح، الآية: 29.

ومعْنى المَرْحَمَةِ المَنْدُوب إلى التواصي بها هو رحْمةُ المَساكِين، وغيرهم، وقيل: هي كلما يؤدي إلى رحمة الله تعالى.

وأمَّا الحَّق المندوبُ إلى التواصي به، فهو الإسلامُ وما يتضمنُه من الأعمال والطاعات، وقال بعضهم: هو القرآن، والعملُ بما فيه، من الإيمان، والتوحيد، وسائر شرائع الإسلام.

فعليك – حفظك الله ورعاك، وحمد مَسْعانا ومسْعاك– بالدورَان مع الحق حيثما دار، والطيران معه حيثما طار، وكن ممن صدقَ مع الله في السر والعَلن، واعتمدَ عليه في المقام والظَّعَن، وقامَ بحق العبودية بالقلب والبَدن، ورضي عنه في موارد المِنَحِ والمِحَن، وتَوَلَّهُ، فمَن يتولَّى الله ورسولُه، فقد فاز بأعظم المِنَن، وعامِلْ **بالشريعة** الخلق، و**بالحقيقة** الحق، وزِنْ أعْمالكَ بقِسْطَاسِ الإقامةِ، وأحْوالك بميزانِ الاستقامة، وتَوَكّلْ على الله، واسْتَعِنْ بالله، فإنه لا حول ولا قوة إلا بالله.

وأمَّا الصَّبْرُ –وهو حبْسُ النفْس على ما تَكْرَهُهُ– فهو على ثلاثة أقسام، كما في بعض تصانيف مشايخنا رضي الله عنهم: **صبر** على الطاعة، **وصبر** عن المعصية، **وصبر** على المعصية.

ويكفي الصبرَ من الفضْلِ ما جاء في القرآن الكريم من كوْنه مُوجِبًا لمَعِيَّة الله: ﴿وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[1]؛ أي معهم بالإعانة والنصر، ومِنْ كوْنه لا تقديرَ لأجْره، ولا حِسابَ لذُخْرِه؛ ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[2].

فما من قُرْبَةٍ إلا وأجْرُها بتقديرٍ وحِسابٍ إلا الصبْر... وفائدتُه لا تُحصى، وثمرته لا تُسْتَقْصى ...

وإياك – حفظك الله ورعاكَ، وتولَّانا بعنايته وولايته وتولاكَ– **ومخالطة الأحداث** فإنها داعية الارتكاس، والتلبُّس بالأحْداث، ولا قاطع للسَّالك –في

---

[1]– **قرآن كريم**، سورة الأنفال، الآية: 46.

[2]– **قرآن كريم**، سورة الزمر، الآية: 10.

طريقه- أقطع من مُصاحَبة أبناء الدنيا، والدخول فيما هم فيه من اللهْو، فإنَّ القلبَ - ما دامَ في الطريق- مُنْجَذِبٌ - بطبْعه- إلىٰ حَضيض الحُظوظ، مَتَرَقٍّ - بالمُجاهدة- إلىٰ جهة الحُقوق، فصُحبة الأبْرار، أرباب الاعتبار، مُرقيَّة له إلىٰ الوُصول، كما أنَّ صُحْبَة الأحْداث وأهل الاغترار حَاطَّةٌ له إلىٰ حَضيضِ الحظ المعْلول، والعزْم المَحلُول.

قال ابن عطاء: **"لا تصحبْ مَنْ لا يُنْهِضُكَ حالُه**، ولا يَدُلُّك - علىٰ الله- مَقالُه، وذلك أن **النفوسَ تنْفَعِلُ بالمُحاكاةِ**، فإذا رأىٰ **السالكُ مُشَمِّرًا** في سيْرِه، ضابطًا لأمْرِه، شمَّرَ سائرًا لا يَلْوِي وانْجَمَعَ طائرًا لمَا يَنْوِي.

وإنْ رأىٰ **صاحبَ غَفْلَة** ولهْو، وحُظُوظ وزهْو، خَلَدَتْ نفْسُه إلىٰ الحَضيضِ، وانْتَكَسَتْ انْتِكاسَ المُبِلِّ المَريضِ، فخِيفَ علىٰ صاحِبِهَا من الحَوْرِ بعد الكوْر، والارتطام بعْدَ الخُروج عن الطوْر.

وإنْ دعتْك إلى مُصاحَبَتِهم ضَرورةٌ تعيَّنتْ، أوْ مَصْلَحَةٌ دينيةٌ تبيَّنتْ، فلتكنْ بالظاهر، مع المُزَايَلةِ بالباطِنِ، والتحَفظ -غالبًا- منْ مُشارَكتِهمْ لما هُمْ فيه من الانْهِمَاكِ في المُبَاحاتِ، وأنْوَاع المَلاذِّ والشهوات، فلفُضول المُباحاتِ دُخانٌ يُؤَثِّرُ في القلبِ، عَشًى يَحْجُبه عن مُطالعَةِ أسْرارِ الغُيوُب.

كَمَا **إنَّ لآثارِ المَعاصِي حُجُبًا** تَمْنَعُ منْ وُصُول أمْوَاهِ الإلهاماتِ إلىٰ تجاويف القلوب.

واجْعلِ الثقةَ بالله كَنْزَك، والاعْتِمَادَ عليْهِ عِزَّك، والتوَكُّلَ عليْه حِرْزَك، والرضى عنه فوْزَك.

واتَّخِذِ الأدبَ شِعَارًا، والطلبَ دِثارا، والزُّهْد مَدارًا، والوَرَعَ مِضْمَارًا، والتَّقْوَىٰ جَارًا، والطمَأنِينَة قَرَارًا، والكِتابَ والسُّنَّةَ مِعْيارا، والرجُوعَ إلىٰ الله بالتَّضَرعُّ والابْتِهال أنْصَارًا، والرَّجاءَ والخوْفَ عُدَّةً وأوْزَارًا، والذِّكْرَ هِجِّيرَىٰ ليْلا

ونهارًا، تفزْ بالفلاحِ، والفَلَجِ والنَّجَاحِ، وبالله تعالىٰ التوفيق، والهداية إلىٰ أقْوَم طريق.

واللهَ نُسِائلُهُ – لنَا، وَلكَ– العَافِيةَ الدائِمةَ، والنِّعْمَةَ الضَّافيةَ القائمةَ، إنَّه علىٰ ذلك قدير، وبالإجابة جدير، ولا حول ولا قوة إلا بالله العظيم القديم"[1].

ج– البطولة الداخلية والخارجية

إنَّ مَرْكزية **"المُقاومة الأخلاقية"** في ذهْنيةِ القوم، وشِعْرِيَّتهم، مثّلما تفاعلتْ بيْن أبَهَةِ **"الفُتُوَّة"**، **ورهْبَنَةِ التصوُّف**، تفاعلتْ كذلك بيْن **البُطولَة الداخلية**، في مُواجَهة نوَازع الذات، ورُعُونة أهْواء النفْس، وبيْن **البطولة الخارجية** أمام تهْديدات الأعْداءِ الخارجيين، في **"البلاد السائبة"**؛ حيث كلُّ كِيانٍ اجتماعي فيها مُطالَبٌ بالدفاع عن نفْسه، ضدَّ الكِياناتِ الأخْرىٰ، المُتصَارِعَة –في غياب السُّلْطة المَرْكَزِية– علىٰ مُقوِّمَات الحياةِ الشحِيحة، إذ "الحياة للأقْوىٰ، والضعيفُ لا يعيش"، إلَّا إذا رَضِيَ بهَوَانِ حياةِ التَّابَعِيَّةِ، التي هي –حقيقة– أشدُّ من الموت:

لـيس مَـنْ مَـاتَ؛ فاسْـتراحَ بميْـتٍ إنـــما الميْـــتُ مَيِّـــتُ الأحْيـــاءِ![2]

ومِن هُنا كانت **النزْعةُ الأخْلاقية، في مُقاوَمَة الذات** لا تَصِلُ – عنْد القوْم– إلىٰ حَدِّ **"الدَّرْوَشَة"** المهِينة... فيكْفِي– في مثْل هذه البيئةِ **" السائبة"**– أنْ لا تكونَ لِصًّا، ولا قاطعَ طريق، ولا مُعْتَدِيا **"صَائلا"** علىٰ غيْرِك.. لكنَّك – في الوقْت نفْسه– لا تتخلَّىٰ عن حَقِّ "الدِّفاع الشرْعِيِّ" عن النفْس... وهكذا كان يتعايشُ تحْت جِلْدِ كلِّ واحدٍ من هؤلاء.. عالِمٌ، وناسكٌ، وشاعرٌ، وفارسٌ، وعاشقٌ.. ولعلَّ **خيْرَ مِثلٍ** علىٰ تركيبةِ **"كِيميا الشخْصيةِ الكنْتية العجيبة"** هذه، هو **"سِيدِيَّ بن آدبَّ"**، وخصوصا في **رائيته المشْهُورَة**، التي قالها بعد سنة 1882، وكانَ بعْضُ

---

[1]– هارون: مصدر سابق، ص 100– 103.

[2]– القائل: عدي بن رعلاء الغساني، انظر: **الأصمعيات**: تح: أحمد شاكر، دار المعارف، مصر، ط2، 1963م، ص 152.

رُمُوزِ كنْتَه يَعْتَبرُونها **نشيدَ الجَماعة**، الذي يُمَثِّلُ **صميمَ هُوِيتها المُرَكَّبة**، ويُلْزِمُونَ المُتألِّقينَ من شبابهم بحِفْظِها وتَمَثُّلِها لاكْتمالِ فُتُوَّتِهم[1]، فرغم سَطْوَةِ الجَمَالِ والحُبِّ، في نفْسية الشاعِرِ العاشقِ، تبْقي لرُوحِ الفَارِسِ، خُطوطٌ حمْراء... تبْدأ عنْد حُدود قَدَاسَة الشرَف، والكرامة، وعلى ضوْء هذه الفلْسفة والرُّؤْية كانت المُقدّمَة الغزَلية مَدْخَلا مُوَفَّقا إلى الفخْر، والانتقالِ من الحُبِّ إلى الحرْب (الطويل):

ألا طرقتْ -كاليُسْر- من بعْدِمَا عسْرٍ ... بمَسْرَى يُسَرِّي الهمَّ إمَّا لنَا تسْري
أمَامَةُ.. عنْ وصْلٍ.. لنا.. بعْد هجْرِنا ... فأهْلًا.. بهَا.. منْ واصِلٍ.. بعْدمَا هَجَرِ
مُحَبَّأةٌ.. تَسْبِي الحلِيمَ.. بِمَنْطِقٍ ... هُوَ السِّحْرُ، لا السِّحْرُ المُؤدِّي، إلى الكُفْر
مُعَطَّرَة.. يُزْرِي -علَى المِسْكِ- طِيبُها ... وبالبَدْرِ.. تُزْرِي.. نصْف رابِعَةِ العَشْرِ
بَعِيدةُ مَهْوَى القُرْطِ.. عجْزَاءُ.. خدْلَةٌ ... مُهَفْهَفَةٌ.. بيْضَاءُ.. برَّاقةُ الثَّغْرِ
وكنتُ على الآزَامِ.. مِنْ قبْلِ هجْرِها ... صبُورا؛ فَأفْنَى هجْرُها ساحتيْ صبري
فلمَّا.. رَأَيْتُ الهجْرَ -لا شَكَّ- قَاتِلِي ... علَى أنَّه -لِي دائمًا- بالهَوَى يُغْرِي
تَمَنَّيتُ.. لوْ -في الهَجْر- تَذْكُرُنِي.. ولوْ ... بِهُجْرٍ.. وَمَنْ لِي -مِنْ أُمَامَةَ- بالهُجْرِ؟
أرَاهَا.. تُرِينِي المَوْتَ.. عَمْدا وإنها ... لَتَقْصُدُنِي -بالقتْل- تِيهًا، وما تدرِي
أَقَاتِلَتِي.. عمْدًا.. أُمَامَةُ.. بَاطِلا ... جِهَارًا.. كأنِّي لسْتُ.. بالصَّاحِبِ البرِ؟
فقلْتُ لها: مهْلًا.. أُمَامَةُ، قَصّرِي ... عنِ الفَتْكِ بي.. فِعْلَ السَّفاهَةِ.. وَالخُسْرِ
وإلَّا فَإنِّي مِنْ مَعَاشِرَ.. دأْبُهمْ ... -إذَا وُتِرُوا- التَّشْمِيرُ.. والأخْذُ بالثَّأْرِ
نَرَى الظفْرَ.. بالأعْدَاءِ.. نذْرًا.. وإنَّنَا ... -إذَا مَا نذَرْنا الأمْرَ- مُوفُونَ بالنذْرِ

[1]- كانت هذه القصيدة من عناصر الفتوة، مثلما كان ابن حزم الأندلسي يقول: "من تختم بالعقيق، وقرأ لأبي عمرو، وتفقه للشافعي، وحفظ قصيدة ابن زريق، فقد استكمل الظرف". انظر: صلاح الدين الصفدي: **الوافي بالوفيات**، تح: أحمد الأرناؤوط، دار إحياء التراث، بيروت، 2000م.

د- مقاومة الجهل والجبن: جدل الكتاب والركاب

لقد كانتْ **نظْرَةُ مُجْتمَع "البلاد السائبة"** إلى طرفيْ **جَدَلِية السيْف والقلَم** نظْرةً حَدِّيَّةً ("إمَّا.. و.. وإمَّا")؛ بحيْث إنَّ منْ أخَذَ **"الكِتاب بقوَّةٍ"**، لا **"يَتَأَبَّطُ شَرًّا"**، أيْ سيْفًا، ومن تَنكَّبَ **"المدْفعَ"**، تَنكَّبَ عن **"اللوْح"**، هذه هي القاعدة العامة، التي اقتضاها **تَوَازُنُ الرُّعْب** بيْن السُّلْطَتَيْن: **"الدِّينية"**، و**"العَسْكَرية"**، حتى لا تُهَيْمِنُ إحْداهما على الأخْرى، في مُجْتَمَعٍ **"سائبٍ"**، تُرَوِّجُ فيه طبَقَتَا **"الزوايا"** و**"العرب"** معا: أنَّ الحياةَ لا تسْتقيمُ إلاَّ تحْت **"كِتَابٍ"** أو **"رِكَابٍ"**، غيْر أنَّ القاعدةَ دائما لا تسْتَغْنِي عن اسْتثناءاتٍ تُصَحِّحُها، وقدْ كانَ **المُجْتَمَع الكنْتي**، من بيْن منْ كسَرُوا صَرَامَة حَدِّية هذه الرُّؤية؛ فغلبَ عليْهم **"الجَمْعُ بيْن الأخْتَيْنِ"**: قوَّتَيِ **"السَّيف"** و**"القلَم"**، وليست أسْرة **"أهل آدبَّ"** بِدْعًا في ذلك، **فسيدي الأمين بن محْمد** بن طالب أعمر بن خيري البوسيفي، كانَ **قاضي أولاد بوسيف "الخضْر"**، **المُعْلِنَ بشِعْرِيَّتِه شَرْعِيةَ الحرْبِ الدفاعِية** عن حُرُمَاتِ الأهْل، والمُتَمَوْقِعُ في طلِيعة فُرْسَانِ القوَّةِ الضارِبَةِ، والمُسْتَشْهِدُ فِي الخُطُوطِ الأمَامِيَّةِ، في الهُجوم/ الدفاعي، وقد ترَكَ ابْنَه الأصْغَر **عبْد القادر "آدبَّ"**، في هذه البيئة الحرْبية، ذاتِ الظروف الحياتية الصعْبة، غيْر المُوَاتِية لطلَبِ العِلْم، وهذا ما يَسْتَحْضِرُهُ ابْنُه سيدي محمد **"سِيدِيَّ"** رِوَايَةً عنْ والِدِه، حينَ يَرُدُّ علَى أخِيهِ": **محمد لْحوار"**، عنْدما اسْتَأذَنَه في الرحْلة لطلَبِ العِلْم، فيقول له، في تَضاعيفِ رِسالتِه الجَوابِية: **"فتْح القهَّار في الرَّدِّ على محمد لْحوار"**:

"إذْ قد أدْركْتُ والدَنا رضي الله عنه، فقد حدَّثَني – رضْوانُ الله عليْه – غَيْرَ ما مرَّة –وأنتَ شاهدٌ– أنَّه نَشأ فيما ينْشأ فيه مِثْلُه من أطفال أهْل الحرْب، من مُعاناةِ المَعِيشةِ وكدِّ العِيال، في شظَفِ العيْش، وشُغْلِ البَال، مُوَافَقَةَ مَسِيرِ إخْوَتِه طَلَبَةً، فمَا زالَ كذلك حتى بَلَغَ، وهو على تلك الحالة، لمْ يكتسبْ عِلْمًا، ولمْ يُطالعْ...".

وهنا يتأطر **انحياز القوم للعلم اللدني الموهوب** "من لدن الله"، ومقاومتهم الأخلاقية **للعلم الكسبي**، من منطلق اعتباره أصبح فارغا من معناه، على يد **من**

يسميهم سيدي بن آدب -مُتَقَصِّدًا- **مُتفَقِهي** العصْر **ومُتَصَوِّفِيه**، مستشهدا على جدوائية العلم الوهبي، بأن **إجَازَةَ الشيخ سيدي** بن المختار الهيبة الأنتشائي، لعبد القادر **"آدبَّ"** المُشَار إليْها سابقا، في كلِّ الأوْرَادِ القادريةِ، والعُلومِ الشرْعيةِ، بأصُولِها، وفُرُوعِها، ومَقاصِدَها، بعْدَ سِتَّةِ أشْهُر، من مَقامِه مَعَه، **خيْرُ دليلٍ على ما بَلَغَه هذا الرَّجُلُ**، من مَعارِفَ لَدُنِّيَّةٍ، لمْ يُوجِفْ -عَلى طَلَبِها- منْ خيْلٍ، ولا رِكَابٍ.. ثم يواصل محاولة إقناع أخيه **محمد لْحوار** بترْك الرحلة الخارجية في طلب العلم، معتبرا أنَّ العِلْمَ السائدَ يوْمَها **علْمٌ دِنْيَوِيٌّ**، لا يُرادُ به وجْه الله، ولذلك فهو من **"العلْم غيْر النَّافِع"**، ولا يَسْتحِقُّ عناءَ طلَبِه، وأنَّ **"آدبَّ"** رَغْمَ الظروفِ السيِّئة المُشار إليها آنفا، قد تضلَّعَ بـ **"العِلْمِ اللدُنِّيِّ"** وهو لمْ يبرحْ خِدْمَةَ والِدَتِه والبرِّ بأهْلِه، مُعْتَمِدًا على قاعدةٍ ذهبيةٍ، آمنَ بها، وهي: **"التقْوى"** فأعطتْه أُكُلَها ضِعْفيْن بأمْرِ ربِّها، حيث عَمِلَ بما عَلِمَ؛ فأوْرَثَه اللهُ عِلْمَ ما لمْ يَعْلَمْ، واتَّقى اللهَ؛ فعَلَّمَه اللهُ، و**"جَعَلَهَا كلِمَةً باقيةً في عَقِبِه"**، فمِنْ حضْن ذات القاعدة/ المَدْرَسَةِ تخرَّجَ **"سيدِيَّ"**، **وبقيةُ إخْوَتِه**، وللبرْهَنَةِ علَى صِحَّتَها يقتَبِسُ منْ أقْوالِ العُلماءِ في هذا السياق: (**ليس العالِمُ** منْ يَحْفَظُ، وإلا لَصَارَ جاهلا، **وإنَّما العالِمُ** الذى **يأخذُ علْمَه من ربِّه**، أيّ وقْتٍ شاءَ، بلا تحْفيظٍ، ولا درْسٍ، وهذا هو **العالِمِ الرَّبّاني**، وإلى مِثْلِه الإشارةُ بقوْله تعالى: ﴿ **وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا** ﴾[1]، مَعَ أنَّ **كلَّ عِلْمٍ من لَدُنْهُ**، ولكنَّ **بعْضه بوسائطِ تعْليم الخَلْق**، ولا يُسمَّى ذلك عِلْمًا لدُنِّيًا، بل **العِلْمُ اللَّدُنِيُّ** الذى **ينفتحُ من سِرِّ القلْب**، من غيْر سببٍ مَألوفٍ من خارج. وبالجُمْلَةِ، فالتَّقْوَى رَأْسًا، والعِلْمُ الناشِئُ عنْها، إنَّما يُنالانِ بظلْف النفْس عن شَهَواتِها ومَألُوفاتِها، مع الحَكَمَة عليْها، واتِّهامِها في مَنْهيَاتِها ومَأمُوراتِها، إذْ هي كما قيل: كالدابة التي تُرَاضُ، أمَا ترَى أنَّك إنْ ضيَّقتَ عليها بالحَكَمَةِ والزمام والضرْب لانتْ؛ فانقادتْ إلى مُرادِك، ووجدتَ منْها السيْر الفسيحَ، وإذا تركتْها تتفسَّحُ في مَراتِعها، حتَّى سمِنتْ، ركضتْ بكَ، فألْقتكَ عن ظهْرها سالما، أوْ مَيتا، أوْ مَعْطوبًا....).

[1] – **قرآن كريم**، سورة الكهف، الآية: 65.

ولا شكَّ أنَّ القارئَ سوْف يتذكَّرُ أنَّ هذا **المُعْجَمَ** ذاتَه، هو مَا طغَى على **قصيدة "سيدِيَّ"** الآنفة، التي سَاقها في توْجيه وتَرْبيةِ أخيه الآخر: **الشيخ أحمد،** الذي انْصاعَ لمنْهج **"المَدرَسة الآدبِّيَّة"** تلك، فنالَ نصِيبَه من مِيرَاثِها **"الوَهْبي/ اللَّدُنِيّ"**، عِلْمًا، وعِرْفانا، وسُلوكا، وأدَبًا، وإبْداعا، وفُرُوسية، وتمْكينًا، فسرْعانَ ما أصبحَ - بعْدَ خِلافَتِه لأخِيه "سيديَّ- **شخصيةً مرْكزيةً في فضائه الواسِع**، ما بيْن البَراكنة، وتكانتْ، والحوْضيْن، وغيْرها، فكان شيْخًا "رُوحِيا"، له مُريدُوه، **وشيخا "زمَنِيا"** له سِجِلُّه الإداري/ "كنَّاشُه" الخاص، دون فخِذه، أحْرى قبيلته الكبيرة، لأَن أغْلَبَ شيوخ وُزعَماء قبيلته -في فضائه- كانوا من مُرِيديه؛ فاسْتحالَ أنْ ينْضَوِي تحْتَ ظِلِّ زَعَامَاتِهم، كما أنَّه كانَ **صاحبَ مَكانَةٍ عِلْمِيَّةٍ، وشِعْرِيَّةٍ بارزة،** وهنا نَجِدُ الشاعرَ القدير: **مُحمد عبد الله بن عبيد الرحمن العلوي،** في **مرثيته** الرائعة **للشيخ أحمد** هذا، مُرَكِّزًا -في هذا المَقْطَع- على موسوعية مَعارفه (من الطويل):

قد أغْمَدَ منْهُ الموْتُ سيْفَ هِدَايَةٍ ... وَلوْ شاوَرَ الموْتُ الهُدَى ليْسَ يُغْمَدُ
قد أنْصَفَتِ العلْيَاءُ إذْ بَعْدَهُ غَدَتْ ... قَرِيحَةَ جَفْنٍ.. لَيْلُهَا ليْس يرْقدُ
وَمَا زَالَتِ التَّقْوَى ادِّكَارًا لِدَهْرِهِ ... مُفَجَّعَةً.. ثَكْلَى.. تَقُومُ.. وَتَقْعُدُ
بَكَتْهُ المَعَالِي.. والمَعَانِي وبَعْدَهُ ... سَيَمْكُثُ عِلْمُ الشَّرْعِ، وهْوَ مُسَهَّدُ
تَزَوَّدَ خَيْرَ الزَّادِ.. طُولَ حَيَاتِهِ ... وَإِنَّ التُّقَى خَيْرُ الَّذِي يُتَزَوَّدُ
وتَشْهَدُ أرْبَابُ المَقَامَاتِ أنَّه ... - عَلَيْهُمْ- لهُ التَّقْدِيمُ.. والحَالُ يَشْهَدُ
لقد أفَلَتْ شَمْسُ العُلُومِ بِفَقْدِهِ ... وفُلَّ حُسَامُ المَكْرُمَاتُ.. المُهَنَّدُ
وحُلَّ لِوَاءُ الدِّينِ يوْمَ وَفَاتِه ... وَإِنِّي لأَحْجُو أنَّهُ ليْسَ يُعْقَدُ
فَيَا وَيْحَ مَا سَنَّ الجُنَيْدُ لِحِزْبِهِ ... وَمَا قدْ رَوَى أهْلُ الحَدِيثِ.. وَأسْنَدَوا

أجل، **فكلُّ المَكاسِبِ، والمَواهِبِ،** هي **"لَدُنِّيَّة"** عند هؤلاء القوم، فـ **"سيديَّ بن آدبَّ"**- مثلا- يُعْنِونُ أحدَ مؤلفاتِه: **"فتْح القهَّار، في الرَّدِ علَى محمد**

الحوار"، والآخر: "**فتْح الجليل في الردِّ على الدجاجيل**"، حين ينتقدُ في الأول من يُسَمِّيهمْ مُتَفَقِّهَة العصْر، لسيْطَرَة المَقْصَدِيَّةِ الدنْيَوِيّة، عليْهم تَعَلُّما، وتعْليما، ويَنْتَقِدُ في الثاني دَجَاجِلَةَ المُتَصَوِّفَة، وغيرهم، كما أنه يعتبر كل فَخْرٍ وتمكينٍ لجَمَاعَتِه هو أيضا مُعْطًى لدُنِّيا من الله، حيث يقول في مَقطع من رائيته الآنفة المُقدِّمَة، والتَّخَلُّصِ، متحدِّثا بضمير الجمْع الكنتي:

ونحْنُ بنُو الكنْتيّ -لا فخْرَ- خيْرُ مَنْ ... - وَحَقِّ إلهِ العرْش- يمْشِي عَلَى العَفْرِ
كِـرَامٌ.. نَمَتْـنَا -مـن مَعَـدٍّ- سَرَاتُهـمْ ... إلى أنْ توَسَّطْـنا الـذَّوَائِبَ مِـنْ فِهْـرِ
عَزِيزُونَ.. أحْسَابًا.. ودِيـنًا.. لِعِزِّنَـا ... تَـذِلُّ نُخَـا أهْـلِ الـتَّخَمُّطِ، والكِـبْرِ
لنا الناسُ.. مُلِّكْنَـاهُمُ مـنْ مَلِـيكِهِمْ ... ونَحْنُ لـهُ طـوْع الأوَامِـرِ، والزَّجْـرِ
إذا مَـا أرَدْنَـا سَـيِّدًا.. سَـادَ سِرْبَـه ... ولوْ لمْ يَكُنْ مِنْ قَبْلِهَـا ذِكْـرُه يجْـرِي

ثم يُعَرِّجُ على الفخْر بأزْدِوَاجِيتِهم، في امْتِلاكِ قُوَّتَيْ: " الكِتَابِ والرِّكَابِ":

ونحْنُ بُحُورُ العِلْـمِ.. قـدْما.. وكلَّنـا ... لدَى الحرْبِ كالليْثِ الهزَبْرِ أبِي الأجْرِ
لنـا شَـاهِدٌ -فِـيمَا ادَّعَيْـنا- مُصَـدّقٌ ... غَدَاةَ الْتَقَيْنَـا -وَالأعَـادِيّ- بالغـمْرِ
غَـدَاةَ زحَفْنـا، في خَمـيسٍ، عَرَمْـرَمٍ ... إليْهِمْ.. جِـرَاءً.. عنْد مُنْصَدعِ الفجْـرِ
بجُرْدٍ، عَنَاجِـيجٍ، يَعَابِيـبَ، شُـزَّبٍ ... عَلَى زُمَرِ الأعْـدَاءِ.. مُعْتَـادَةِ الظَّفْـرِ
عليْهَا كُمَاةٌ، مـن بَنِـي سَـامَ، عَـوَّدُوا ... جَـوَامِحَـها الكَـرَّ، المُـؤَذِّنَ بـالظفْرِ
جَحَاجِحُ بُسْلٌ كالأُسُودِ لدَى الـوَغَى ... وُجُوهُهُمُ- في الأزْلِ- كالأنْجُمِ الزُّهْـرِ
بأيْـديهِمُ.. أُولَى المَـدَافِعِ.. مُخْرِجًـا ... بِمَا قدْ حَوَتْ أسْخَى من البحْرِ والقَطْـرِ
إذا سَـدَّدُوها.. فِي نُحُـورِ عـدَوِّهمْ ... أصابَتْ، فَلَمْ تُخْطِئْ -لهمْ- ثُغْرَةَ النحْرِ

وإذا كان "**سيدِيَّ بن آدبَّ**" يتكلَّمُ هنا باسْم الضمير الجمْعي لقوْمه، واصفا إياهم بازدواجية "**الكتاب والركاب**" فالحقيقة أنَّه لم يكنْ ذلك الشاعر الذي يصفُ المَعارِكَ منْ خارجِها، أوْ يَتَمَثَّلُها، وهو عنْها غائبٌ، بلْ كانَ هو

وإخوتُه **فرْسان الميْدان**، المُسْتَبْسِلِينَ في **الدفاع "الشرعي"** عن حُرُمَاتِ جمَاعتهم، حسبَ **المَرْجَعِيةِ الأخْلاقيةِ لمُقاوَمَتِهم الحربية**، التي كان قوْمُهم يحرصون -في زعْمِهم- على أنْ لا يَتَخَنْدَقُوا خارِجَها، ظُلْما، وعُدْوانا، وحِرَابَة، ولُصُوصِية.. حسَبَ ما تفْرضُه -أحْيانا- طبيعةُ **"البلاد السائبة"**، فقد كان قومهم في مَهَبِّ العداوات الشاملة، حسب ما تنضح به نصوص هنا، وفصوص هناك، حيث يقول الشاعر العالم: **محمد بن باب** بن باب أحمد بن الشيخ سيد المختار الكنتي، داعيا الله لـ **أولاد بوسيف عموما**:

فبـــارك الله فـــيهمْ، ثـــمَّ أيَّـــدَهُمْ عـلى العُـداة.. وجُـلَّ النـاسِ أعْـدَاء

ثم يمدحهم بالجمع بين بطولتي الحرب والسلم، حيث يقول:

بنـــو الكـــريم أبي ســـيف أَلِبَّـــاءُ وهـــمْ لمـــنْ صَـــحِبُوا -حَقَّـــا- أَوِدَّاءُ
أحْـــواهمْ في الحـــروب غـــير خافيـــة والســـلم فيـــه لهـــمْ ذكْـــرٌ وأنْبـــاءُ
وهـــم عبيـــدٌ لمـــن رامـــوا تَعَبُّـــدَه وأسْـــدُ غـــابٍ -لمـــنْ عـــادوْه- ضُرَّاءُ

وهذا ما **يصف** به **شاعر** آخر **كناتة** جميعا:

بنُـــو الحـــرْب، عنْـــد الحـــرْب، أسْـــدٌ بواسِـــلٌ
ضَـــوَارٍ، تخـــافُ النَّـــاسُ أنْيَابَهـــا العُصْـــلى
وفي السّـــلْم، عنْـــد السّـــلْم، بـــيضٌ وُجُـــوهُهمْ
تُضِـــيءُ الـــدُّجَى، كالبَـــدْر في الصّـــحْو، إذْ هَـــلَّا
إذَا لبِسُـــــوا أَدْرَاعَهُـــــمْ؛ فـــــضَرَاغِمٌ
وإنْ لبسُـــــوا تِيجَـــــانَهُمُ؛ فهـــــمُ الجُـــــلَّا

وبالازدواجية في **السيف والقلم** يمدح **سيدي بن آدب أهل الشيخ سيد المختار** في أزواد:

أزْكـي البَرِيَّـةِ أعْراقًـا.. وَأعْـدَلِهِمْ قَسْما.. وأفْضَلِ مَنْ صلَّى، وَمَـنْ صاما
بـلى، وأجـودهمْ كفًّـا، وأقْـدَمِهِمْ في الحرْب.. والسِّلْم.. أسيافا.. وأقلاما

وهذا **الشيخ أحمد** يَرْثِي شقيقَهما **محمد لْحوار بن آدبَّ**، مُؤبِّنًا فيه كلَّ القِيم الفاضلةِ، ناصًّا على ثنائية **"السيْف والقلم"** خصوصا:

العِلْمُ، والحِلْمُ، حَنَّا.. حنَّتْ الحِكَـمُ والحُكْمُ.. أنَّ.. وأنَّ الجُـودُ.. والكَـرَمُ
وكـلُّ مُعْضِـلَة.. طَمَّـتْ.. بِـدَاهِيةٍ حَنَّتْ.. كذا السيْفُ- يا لَلنَّاسِ- والقَلَمُ!

وهنا نجد شاهدا على **شجاعة أهل آدب** جميعا **وسيدي** خصوصا، في قول مادحه:

نجْـل آدبَّ مَـنْ حـوَى كـلَّ فخْـرٍ وعَـــلَاءٍ، وسُـــؤددٍ، قـــدْ أبَنَّـــا
بـــتُراثٍ مـــن سَـــادَةٍ حـــلَّ فـــيهِمْ مِـــنْ قـــديمٍ، وفـــيهِمُ قـــد تَأَنَّـــا
هُـمْ لُيُـوثُ الحُـروبِ.. إذْ فَـرَّ أبْطـا لُ الـوَغَى، والجميـعُ بـالنفْسِ ضَـنَّا

كما مدحه بذلك **محمد بن الحابوس**، الملقب: **محمد مِر"** بترقيق الراء:

وإنْ صـــالَ الفـــوارسُ في قتـــالٍ يَـــرُدّ الصـــائلينَ عـــن المَصـــالِ
أيـا رأسَ الجَحـاجِحِ مـنْ قُـرَيْشٍ أُبَـاةِ الضـيْمِ إنْ دُعِيَـتْ: نِـزَالِ
تَخَـيَّرْ مـا ابْتغيْـتَ مـنَ المَعـالِي علـوْتَ عـلى ذَوِي الهِمَـمِ العَـوَالِي
ولا تخْـشَ المُنَـازِعَ مِـنْ رِجـالٍ ولـــو جـــاءُوا بـــأثْمانٍ غَـــوَالِ

وفي رثاء **الشيخ أحمد بن آدب** نفسه من طرف ابن عمه: العالم القاضي الشاعر: **محمد بن الدي** بن أحمد بن سيد الأمين بن محمد الطالب اعمر بن خيري، يركز على هذه الثنائية في منظومة قيم المرثي:

سَـلِّمْ أمـورَكَ للمُهـيْمِنِ الحَكَـمِ مضـتْ بَقِيَّـةُ هـذا المجْـد وَالكَـرَمِ
والشُّكْر، والصبْرِ، والخُلْقِ الجميلِ، على حُسْـنِ الوفَـاءِ بحَـقِّ النَّقْـدِ والسّـلَمِ

والعِلْم، والحِلْم، والسِّرِّ المَصُونِ عَـلَى صْوْنِ السَّرِيرَةِ، مِـنْ زيْـغٍ، ومـنْ لَـمِ
والــنَّظْمِ، والنَّثْــر، فِي أعْــلَى بَلَاغِتِــهِ والمِـدْفَعِ، الـدَافِعِ، المِقْـدَامِ، والقَلَـمِ

وقد **تواطأ مادحوهم** من الشعراء على إبراز ازدواجيتهم في **بطولة القلم والمدفع**، ما يعني أن ثنائية الشجاعة والبلاغة مكينة، متجذرة في منظومة قيم هذه الأسرة، فهذا الشاعر **محمد محمود** بن محمد سيدنا الملقب **"أفافه"**، يمدح **حَمَّ بن سِيديَّ بن آدب**، فيقول، بعد وفاة عمه الشيخ أحمد، فيما يبدو:

لئِنْ غابَ بدْرُ الدينِ، والحِلْم، والنَّدَى وأصبحَ كَسْرُ الـدينِ لـيسَ لـه جَـبْرُ
فــ حَـمَّ بْـنُ سِـيدِيَّ المُعَـلَّى كمِثْلِـه هـمُ البَـدرُ مهْـمَا غـابَ يَخْلفُـهُ البَـدْرُ
لــه الأمْـرُ عنــد العــارفين جمـيعهمْ وفي الكتْـبِ عنـد العـالِمين لـه الأمـر
له الفخر في يوم اللقـاء لـدى الـوغى وفي البَذْلِ في يـوْم العطـاءِ لـه الفخـر
ومـا وهبـتْ كفَّـاه يزْهـو بـه النَّـدى ومـا كتبـتْ يُمنَـاهُ تزْهـو بـه الزُّبْـرُ
هُمَـــامٌ، أبِيٌّ، لا يُضـــامُ حريمُـــه كــريمٌ، وَهُــوبٌ لا يُغــيِّرُه الــدهْرُ
فلا اليُسْـرُ في الــسَّرَّاءِ يُطـربُ نفْسَـه ولا هـو في الــضرَّاء يُجزعـه الــعُسْر
بمعْرُوفــه أحَيــا المُــروءةَ بعْــدما قد امْسـى مـن المَعْـرُوفِ مَنْزِلُهـا قفْـرُ
تكنَّفَــهُ المَــوْلَى بعــيْنِ كمَالِــهِ وصـاحَبَهُ - فـيما توَجَّهَـهُ- النَّصْـرُ

هـ- مقاومة الشح: قتل البخل بسيف البذل

إنَّ وصْفَ **"التكَنْتِي"**، الذي وُسِمَ به هؤلاءِ القوْم، عبْر التاريخ، كان-في أصْل إطْلاقِه- يَخْتَزل مَنْظُومَةً من القِيم الفضيلة النبيلة.. تُرَادِفُ **"اسْتَفْتِي"** باللهْجَة الحسَّانية، أو **"الفُتُوَّة"** بالفُصْحَى، لكنَّ **"الكرَمَ/ السخاءَ"** كانَ أبْرزَ تلك **المَنْظُومَةِ الأخلاقية**، وألْصَقَها برُوح **"التكَنْتِي"** مَفْهومًا، ومُصْطَلَحًا، وهُوِيةً، وذِهْنِيةً.. وقد كانَ لأهْل **"آدبَّ"**.. دوْرٌ بارزٌ في ترْسيخِ وإشاعَةِ تلك المُثُلِ عُموما، كما رأيْنا، وهذه خُصوصا، كما سنرَى.

يقول آدب في تشخيصه حاجاته الروحية لشيْخه الشيخ سيدي: «والغضبُ الذي ذُكِر- سيدي- آنِفًا، وَغَيْرُه من الأوصاف المذمومة شرْعا وعادة- طِباعٌ غريزية، والطباعُ تَزولُ قبْلها الجِبال، من المَحَالّ، كما روي: إذا سمعتَ بجبلٍ زالَ عنْ مَحلِّه فلا تنكرْ، وإذا سمعتَ بطبْعٍ زالَ عن صاحِبِهِ فكذِّبْ،

لكن الله يزيل الأشياءَ من مَجالِها بخَلْقِ أضْدادِها في مَحَالِّها، فيزيل نار الشُّحِّ ويُخْمِدُها بمَعِينِ الإيمان إذْ لا يجتمعان، فكُلَّما تزايدَ نُورُ الإيمانِ، ضَعُفَ **سُلْطَانُ الشُّحّ**، حتَّى يضْمَحِلَّ بثلْجِ **اليقينِ**، و**المَعرِفَة**، و**التمْكين**، فيَتَحَصَّلُ **السَّخَاءُ**، ثمَّ **الجُودُ**، ثُمَّ **الزُّهْدُ**، ثمَّ **الكرَمُ**»[1].

ويبدو أن **الرجل قد وصل** في درجات الإيمان، مستويات **"ثلج اليقين"**، و**"المعرفة"**، و**"التمكين"**، حتى **اضمحَلَّ سلطانُ الشُّحِّ** على نفسه، وترقى إلى أوْج الكرم، متجاوزا درجات **"السخاء"**، و**"الجود"**، و**"الزهد"**، كما يلاحظ أن هذه القيمة الفاضلة، كانت من مورثاته الباقية في الأسرة التي بَصَمَهَا باسْمِه، وطبَعَها بمنظومة قيمه، وإذا كان **الكرم** رأس هرم القيم **"الكنتية"** عموما، فإنه يعتبر - أيضا- رأس هرَم المُثُل **"الآدبِّيَّة"** خصوصا، حيث اشتهرت به هذه **الأسرة** - ربما- أكثر من غيره.

ولربما كان **"سِيدِيَّ ولد آدبَّ"** خير ناطق باسم الجماعة والعائلة في المَقام الفخْري، حيث يقول فِي قصيدتِه السابقة، باسْمِ قوْمه جميعا:

لنا العِزُّ.. لا بالمَالِ.. والفخْـرُ.. لا بِـه إذا صـــانَه الأرْذالُ للعِـــزِّ والفخْـــرِ
مَكاسِـبُنا الجَـاهُ.. الوَجيـهُ.. ومالُـــنَا مُعَدٌّ.. لـديْنا.. للمَحامِـدِ.. والشُّـكْرِ

[1] - هارون: مصدر سابق، ص 97- 98.

وإذا التمسنا شاهدا على ما افتخر به **سيدي بن آدب**، فهذا شاعر يمدحه هو شخصيا، فيقول:

طـال بثِّـي مـنْ نـأي عَـزَّةَ عنَّـا ... ليْتَنِـي مِنْهـا نِلْـتُ مَـا أتمَنَّـى
كمَنَـالِ الحَاجَـاتِ عـافٍ تـوَخَّى ... وَجْـهَ سِـيدِيَّ فـوْقَ مَـا كـانَ ظنَّـا
ومَنـالِ الحـافِي بـه قـيْسَريَّا ... يرْتَعِـي مـن رياضِـهِ كـلَّ غَنَّـا
نجْـل آدبَّ مَـنْ حـوَى كـلَّ فخْـرٍ ... وعَـلَاءٍ، وسُـؤددٍ، قـدْ أبَنَّـا
بـتُراثٍ مـن سَـادَةٍ حـلَّ فـيهمْ ... مِـنْ قـديمٍ، وفـيهمُ قـد تَـأنَّى
هُـمْ لُيُـوثُ الحُـروبِ.. إذْ فَـرَّ أبْطـا ... لُ الـوَغَى، والجميـعُ بـالنفْسِ ضَـنَّا

وفيه أيضا يقول **محمد بن الحابوس** الآنف الذكر:

وقَامْـتْ مـنْ سَـمَاحتِه شُـهودٌ ... عـلى أنْ لا يُسـابَقُ في مَجَـالِ
يُعَـرِّضُ نفْسَـه عـنْهمْ مجَنًّـا ... يقـاسِي النائبـاتِ بكـلِّ مـالِ
سَـجاياهُ التَّعَـرُّضُ في الـدَّوَاهِي ... إذا فَـرَّ الكـريمُ مـن الرِّجَـالِ
تَظـنُّ الوافـدِينَ أمَـامَ بيْـتٍ ... رِفَـاقَ الحَـجِّ في زمَـنِ الهِـلالِ
يجـودُ علـيْهمُ بسـجالِ مـالٍ ... تضـنُّ بـه اليمـينُ عـن الشـمالِ
ولـوْ خافـتْ ظنـونُ النـاسِ فيـهِ ... لَمَـا هـمَّ الوُفُـودُ بِالانْتِقَـالِ

ولعلَّنا لا زَال يتردَّدُ في أذانِنا حِوَارُه **الشعْريُّ التَرْبَوِيُّ** مَعَ أخِيه **الشيخ أحمد**:

أَحِـبُّ الـذى احْبَبْـتَ غـيْر مُحَـرَّمِ ... وأبْغَضُ ما أبْغَضْتَ بـالحِسِّ والمَعْنَـى
وأبْذُلُ مَـالِي.. فِي رِضَـاكَ.. وكـلُّ مَـا ... حَمَيْتُكَ.. لمْ أمْنَعْهُ حِرْصًـا.. وَلا ضَـنَّا

ويبْدُو أنَّ **الشيخ أحمد** المُخاطَبَ، ليْس أقلَّ مُقاوَمة لشُحِّ النَّفْسِ، وبُخْلِها من أخِيه، فهو نفْسُه **يُراسِلُ أحَدَ مُرِيدِيه، مُوصِيا إيَّاه**، بالتَّحَرُّرِ منْ حَبائل الدُّنْيا، بقوْلِه:

(**وما وَجَدْتَ مِنْهَا فاجْعَلْهُ بيدِكَ، وأخْرجْه من قلْبِكَ**، إذْ بُعْدَ مَا بيْن **الدنْيا والآخِرة**، بُعْدُ ما بيْن المَشْرق والمَغْرب، **ولا يَصِحُّ إمْساكُها لسَالكِ طريقِ الآخِرَة**، إلا بعْد القدْرة على إمْسَاكها فِي يَدِه، وإخْرَاجِها منْ قلْبِه، فإذا بَلَغَ ذلك، فلَهُ أنْ يُمْسِكَها، وَيفْعَلَ فيها ما يشاءُ، ويتصرَّفَ فيها كيْف شاءَ؛ لكوْنها صارتْ لا لُمْباهاةٍ، ولا تكاثُرٍ، ولا تفاخُرٍ، بل لعِفَّةِ النَّفْسِ عنِ السُّؤالِ، والنفقَةِ علَى العِيال، وتأديةِ ما فرَضَ اللهُ فيها من الحُقوق).

وإذا كان **الشيخ أحمد** لمْ يتحدَّثْ عنْ كرَمِه الشخْصِي، فإنَّ والدَه "**آدبَّ**"، قد نابَ عنْه، في هذا السياق، **مَتَنَبِّئًا** له -منْذ طُفُولَتِه المُبَكِّرَة- **بسَخائِه المَادِّيّ والرُّوحِيّ**، "تخْويلا"، و"تقْديسا" لكلِّ منْ سيَحُجُّ حضْرَتَه، منْ رُوَّادٍ، ومُرِيدِينَ، قائلا:

إليْـه يَسْـعَى رواد الحَـاجِ مـنْ بُعُـدٍ فيُفْلِحُـونَ بتخْويـلٍ، وتقْـديسٍ

كما **أنَّ الوالدَ**، أكَّدَ أيْضا مَا سَيَؤولُ إليْه ابْنُه هذا منَ الكرَم، وكلِّ الفَضائِلِ الأخْرَى:

الشيخ أحمـدُ.. فخْـرٌ.. حـين يُفْتَخَـرُ مـا إنْ يُشـابِهُه بحْـرٌ.. ولا مَطـرُ
بجُودِ يُمْنَـاهُ.. جـادَ البـاخِلُونَ.. كـما -مِنْ راحتَيْهِ- بُحُـورُ العِلْـمِ تَنْفَجِـرُ
معلِّـمٌ.. عـالِمٌ.. علَّامَـةٌ.. عَلَـمٌ قد فـاقَنا.. وكـذا مَـنْ قبْلَنـا غَـبَرُوا.

ولكيْ نتأكَّدَ -نَصِيًّا- منْ أنَّ فِرَاسَة "**آدبَّ**" لمْ تَخِبْ في ابْنِه، سنسْتحْضِرُ شاهِدا من غيْر أهْلِه، هو الشاعرُ محمد عبد الله **بن عبيد الرحمن العلوي**، صديقَه الذي رَثَى فيهِ كلَّ مَكْرُمَةٍ وفَضِيلةٍ:

فشَـلَّتْ يَـدُ المـوْت، التِـي مَـدَّهَا إلى تَقِـيٍّ، نَـقِيٍّ، لا تُضَـمُّ لَـهُ يَـدُ
مَضَـى منْه مِتْـلافٌ، فَـرَائِصُ مَالِـه مَدَى الدَّهْرِ- مِنْ خوْفِ التفَرُّقِ تَرْعُدُ

وغَيْثٌ عَلَى أهْلِ الحَـوَائِجِ، قـدْ همَـى ... ولكنَّـه يهْـمِي، ولمْ يَـكُ يُـرْعِدُ
فَتًى، قدْ بَكَـتْه المَكْرُمـاتُ، ولمْ يَكُـنْ ... بَكَـاهُ طَريـفٌ، يَـوْمَ بَـانَ، ومُتْلَـدُ
هُمَـامٌ، إذا مَـا قَـالَ وَاصِـفُ فَضْلِـه: ... مُضَاهِـيهِ، لا يُلْفـى؛ فلـيْسَ يُفَنَّـدُ
هُمَـامٌ؛ بِـهِ شَـمْلُ الفَخَـارِ؛ مُجَمَّـعٌ ... ولكنْ -بِـهِ- شـمْلُ الثَّـرَاءِ مُبَـدَّدُ
فيَـا لهْفَ أضْيَافِ الشِّـتَاءِ! لقـدْ عـلا ... - عَلَى مُكْرِمِ الأضْيَافِ- تُرْبٌ، مُلَبَّدُ!
ومَنْ لِليتامَـى، والأيَـامَى، يُنِـيلُهمْ ... - إذَا اسْترْفَدُوا مِنْ رِفْـدِهِ- مَا تَعَوَّدوا

وعلى هذه الشهادة بكرم **الشيخ أحمد** وسخائه، يتواطأ مادحوه، ومُؤبِّنُوه، فهذا القاضي العالِم **عبد الرحمن بن محمد بن بَلَّال الجمَلِّي**، يقول في رثائه من الوافر:

لعمـرك إنَّ مَـنْ تُخْطِـي المَنايـا ... لسـوْفَ تَصـيدُه بـيْنَ الحَوَايـا
يبيـتُ المـرْءُ يـذهبُ في عَـمَاهُ ... إذا مـا منْـهُ أدْوِرَةٌ خَلايـا
فلـو أنَّ المَنِيـة بالمعـالي ... عـن الأشْراف تُـدفَعُ، والرَّزَايـا
لكـانَ الشـيْخُ أحْمَـد ذا حيـاةٍ ... مُخَلَّـدَةٍ، إلى بعْـثِ البَرَايـا
إمَـامٌ، كـانَ للحاجـاتِ مَـأْوَى ... إليـهِ الجُـرْدُ تُعْمَـلُ والمَطَايَـا
فكـمْ مـنْ مُهْتَـدٍ أهْـدَى سريعًـا ... وكـمْ مـن مُعْتَـدٍ أوْلَى بَلايـا
وكـمْ في الغيْـب أخْـبَرَ في صِـبَاهُ ... وآثـرَ بـالحَوائجِ والغَوَايـا
وكـمْ -مـن غـيْرِ قُـلٍّ- بـاتَ يـدْعُو ... خَمِـيصَ البَطْنِ، أضْـلُعُه حَنَايَـا
تَخافُ العُـرْبُ منْـهُ، مـعَ النّصـارَى ... وتَبْعَـثُ مـن مَخافَتِـهِ الهَـدَايا
تَـزَوَّدَ مِـنْ دُنَـاهُ بِـزادِ تقْـوى ... ومَـا عَمِـلَ الجَـرَائمَ والخَطايـا
عفَـا عنْـهُ المُهَـيْمِنُ وارْتَضـاهُ ... وأضْـحَكَ -عِنْـدَهُ- مِنْـهُ- الثَّنَايـا
وبَـارَكَ في الخَليفَـةِ مـنْ بَنِيـه ... وأوْرَثـه الطبـائعَ والسَّـجَايَا
وآزرَه، وإخْوَتَـه، بنـصْرٍ ... وعِـزٍّ، فِي الضَّـحَايَا والعَشَـايَا
عـلى طـهَ الأمـينِ -وآلِ طـه ... ومَـنْ يُـوصِي بـه- أزْكـى التَّحايـا

وعندما يستشعر أحد الشعراء الرغبة الملحة في **شرب الشاي النادر** يومها بين العامة، لا **تتجه بوصلة طلبه** إلا إلى **الشيخ أحمد بن آدب**، فيقول شاكيا إليه حالهم:

مُرُوا مَنْ يَجِي نَحْـوَ المَشـايخ أنْ يجِـي ... بفرْحَةِ كاسـاتٍ وتطْلِيـع "مغْـرَجِ"
و"تزْييـفِ بَـرَّادِ"، وتكْسـير سُـكَّرٍ ... وأمْـرِ مُقـيمٍ للمُنـاوِلِ أنْ يجِـي
فإنَّـا بنَـتْ فينـا الخـدَرْنَقُ بُرْهـة ... ولـيس لهـا عـمَّا بنـتْ مـن مُهـيِّجِ
سوى الشيخ نجْـل الشـيْخ آدب إنـه ... إذا هـمَّ بـالمَعْروفِ لمْ يـتَلجْلَجِ
حيِيٌّ، سخِيُّ النفْس، والكـفِّ، أروعٌ ... تقِـيٌّ، نقِـيُّ العـرْضِ، غـير مُـزَلَّجِ
مُنَـوّرُ مِـرْآةِ الفُـؤادِ، مُوَفَّـقٌ ... يُنِيـلُ مُرِيـدَ الخـيْر مـا جـاءَ يَرْتَجِـي
فـو الله مـا أنْسـى كؤوسًـا شَـهيةً ... يُجَلِّي شذاها الشَّجْوَ عن كلِّ مَنْ يَجِـي
حبَـاكَ بهـا مـنْ قبْـلُ ذو البَيْـتِ، إنَّـه ... حباكَ بها-معْ غيْرِها- قبْـلَ ذَا المَجِـي

وفي هذا السياق يقول الشاعر **محمد محمود** بن محمد سيدنا الملقب **"أفافه"**، يمدح **حم بن سيدي بن آدب**، ربما بعد وفاة عمه الشيخ أحمد:

له الفخرُ، في يوْم اللقاءِ، لدى الـوَغى ... وفي البْذل-في يوْم العطاءِ- له الفخـر
ومـا وهبـت كفَّـاه يزْهـو بـه النَّـدى ... ومـا كتبـتْ يُمنَـاهُ تزْهـو بـه الزُّبْـرُ
هُمَـامٌ، أبِيٌّ، لا يُضـامُ حريمُـه ... كـريمٌ، وَهُـوبٌ لا يُغـيِّرُه الـدهْرُ

وأخيرا هذا **عبد الله بن سيدي الدوبلالي**، يمدح **شيخه** وصديقه: الشاعر المبدع : **محمد بن الشيخ أحمد بن آدب**، الذي كانت حتى تقارير المستعمر الفرنسي تتحدث عن كرمه الزائد، فيصفه بـ:

غِيَـاثِ الـبَرَى، كهْـفِ الأرامِـلِ، ذي النَّـدى
وإنْسـانِ عـيْنِ الجُـودِ، بحْـرِ الجَـدَى النَّـدِي

"سعيدِ" الوَرى، "مَعْـنِ "الـوَرَى، "حَـاتِمِ" الـورَى
كثـــيرِ القِـــرَى، مفْنِـــي الثَّـــرَى، باسِـــطِ اليَـــدِ
كـــــريمٍ متَـــــى تُلْمِـــــمْ بســـــاحتِه تَجِـــــدْ
سَـــــلاقةَ قُـــــسٍّ، أوْ بَلَاغَـــــةَ مَعْبَـــــدِ
وبَسْـــطا، وتوْسِـــيعًا، عـــلى مَـــنْ تَنُوبُـــهُ
نَوائِـــــبُ دَهْـــــرٍ بالمَعِيشَـــــةِ أنْكَـــــدِ
وعلـــــمًا حبَـــــا ربُّ البَرِيَّـــــةِ سَـــــيِّدا
تَـــــرَوَّى، بـــــلا كـــــدٍّ، بِـــــهِ، وَتَجَهُـــــدِ

و- مقاومة زهرة الدنيا- جدل السلوى والتقوى

رغْم عشْق الجَمَال، و طابع الأُرَيحِية، والتبَسُّطِ، الذي يغلبُ على مِزَاجِ هذه الأسْرة، فإنَّ كوَابِحَ "التَّصَوُّفِ"، كانت حاضرةً بِقُوَّةٍ، تمارسُ رِقابَتَها الداخلية والخارجية، على أرْوَاحِ القوْم، ومنْ ثَمَّ على أقْلامِهم، وألْسِنَتِهم؛ **فعبد القادر (آدب)** بن سيدي الأمين، رب البيت، يتضرع إلى الله:

(أنْ يُوفِّقَنِي للخدْمة، وأنْ يجعلَ حاجِزًا بيْني وبيْن المَعْصِيةِ، وأنْ يصحبَني بلُطْفِه الجَمِيل في الدنْيا والآخرة، وأنْ يأخَذنِي عنِّي إليه، ويُرغبَنِي فيما لديْه، وأنْ يُعَرِّفَني محَلَّ القرْب، ويجْعلنِي أقْرَبَ من القرْب)[1].

متمنيا من شيخه -حين يصدره- أنْ يرتقي به إلى مقام تتحطم فيه الحدود بين الثنائية الضدية، حتى يستوي طرفاها في رؤيته، "وإما أن تنظروا إليَّ نظرةً بمُجرَّدِها يُشْفَي قلبي من جميع ما فيه من الأدْواء، ويمْتلئ عِلْما، وحِلْما، وصِدْقا،

[1]- هارون: مصدر سابق، ص 98.

وإخلاصا، وتقوىٰ؛ فيكون عنده الذمُّ، والمدْحُ، والحُبُّ، والبُغْضُ والعطاءُ، والمَنْعُ، والضرُّ، والنفْعُ، علىٰ حَدٍّ السواء"[1].

فقد مرَّتْ بنا نُصوصٌ وفُصُوصٌ من **أدَبِيَّاتِ أهْل "أدَبَّ"** تُؤكِّدُ أصَالَةَ هذا المَنْزَعِ في كيْنُونَتِهم، بدْءا من قصيدةِ **آدب** "كبيرهم الذي علَّمَهُم" كيْف تُؤَدَّبُ الأرْواحُ الجامِحةُ، وتُرَوَّضُ المَشاعِر الطافحة...حين خاطبَ ذاته:

أَلمْ يَـــانِ أنْ تَسْلُـــــو.. ولِلـــنَّفْسِ -بَعْـــدَما
طَغَـــتْ جَهْـــدَها، واسْـــتَخْدَمَتْكَ- تَـــرُوضُ؟!
فَبَـــادِرْ.. وَلا تَشْـــغَلْكَ "سَـــوْفَ" و"عَلَّـــمَا
وَلا يُلْهِـــكَ الطَّـــرْفُ.. الكَحِيـــلُ.. الغَضِـــيضُ!

وعلىٰ هذا الوترِ الحسَّاسِ ذاتِه، عزَفَ وَرِيثُه **"سِيدَيَّ"**، مُدَنْدِنًا علَىٰ إيقاعِه لنفْسِه، ولأخِيه **الشيخ أحمد**:

فرُضْهَا، وذُدْها -عنْ هَوَاها- وزَكِّهـا ولا تُعْطِهـا نَـيْلًا.. تَنَـلْ مَـا بِـه تُعْنَـى
ومَا حَـازَ قَصْـبَ السَّـبْقِ الَّا مُشَـمِّرٌ قد آثَرَ مَـا يَبْقَـى عَـلَى كُـلِّ مَـا يَفْنَـى

وهناك عِدَّةُ فُصُوصٍ منْ نَثْرِيَاتِه، تَدْرجُ علَىٰ المَسَارِ ذاتِه. أمَّا **الشيخ أحمد**، فيكتبُ إلَىٰ مُرِيدِه السابق:

«**وإنَّه، بحمْدِ الله إليْكَ**، الذي لا إله إلا هو، **والوَصِية لنفْسي ولكَ بتقْوَى الله** العظيم، و**عدَمِ الرُّكُونِ إلى الدنْيا** والمَيْلِ إليْها، وتَوَقِّي حَبَائِلها التي تصْطادُ بها مَنْ مَرَّ عليْها، إذ هِي أسْحَرُ منْ **"هَارُوت"** و **"ماروت"**، وليس لصاحِبها المُقْبِلِ عليْها إلا أنْ يَكونَ لا يَمُوت، واسْتعِذْ منْ شرِّها بالله ربِّكَ، ومَا وَجَدْتَ منْها فاجْعَلْهُ بِيَدَكَ، وأخْرِجْهُ مِنْ قلْبِكَ...».

[1] – هارون: مصدر سابق، ص 98.

والحقيقة أنَّ **الشيخ أحمد** -بحِسِّ الشاعرِ العاشق للجَمَال- **هَلَّلَ لِبَنَاءِ "قصْر البركة" إحْدَى عاصِمَتَيْ قبيلتِهِ في تكانتْ**، مأْخوذا بسحْر روْعَتِه، مُعْلِنا بشعْرِيتِه شرْعِيةَ إعَادَةِ تأسِيسِهِ، بقوْله:

أَبَانِيَ "قَصْرِ البَرْكَة".. شَيِّدْه.. وابْنِـهِ ... وَبَلِّغْ تَحَايَانَـا.. عـلَى القصْـرِ.. وابْنِـهِ
فَذَا العَـالَـمُ العُلْوِيُّ.. رَاضٍ بِنَـــاءَهُ ... وذَا العَـالَمُ.. السُّـفْلِيُّ.. جَنَّـةُ عَـــدْنِهِ

وكما **اسْتَبْسَلَ** هو -معَ أخَوَيْهِ: **سِيدِيَّ**، و**محمد لْحوار**، وخِيرَةِ **فرْسانِ "أوْلاد بوسيف** (فَصِيلَتِه التِي تُؤْوِيهِ)- **دفاعا عن هذا الوادي** المُبارَك- فقدْ رَأىٰ **الشيخ أحمد** أنَّ منْ واجِبِه **المُسَاهَمَةَ فِي تعْمِير "قصْر البَركة"**، فبَنَى هناك **دارًا كبيرةً**، مَدْخَلُها قوْس، تستطيعُ الجِمَالُ المُحَمَّلَةُ بالمِيرَةِ، وهَوَادِجِ الظعائن، أنْ تدْخلَ منه، ربما يكون هو القوْس الموْجودة صورةٌ منه ضمْنَ صور أطلال المدينة/ القصر.

لكنّه سرْعانَ ما كتبَ - فِي مَقام **"النفْس اللّوَّامَة"**، التي قلَّما تطلِقُ العِنَانَ لأفْراد هذه الأسْرة، مُقاوِمًا زَخارِفَ زهْرةِ الدُّنيا:

قُلْ للَّذِي قدْ بَـنَى مَـــا لـيْسَ يَعْمُـرُهُ ... وَفَضْلُ خَـــالِقِهِ -فِي الدَّهْرِ- يَغْمُرُهُ
والمَـاءُ جَـارٍ-حَوَالَيْـهِ- يَهِـفُّ، ومـا ... فِي الأرْضِ مِنْ ثَمَـرٍ هَـا هِـيَ تُثْمِـرُهُ
وصَـــارَ فِي فـــرَحٍ مِنْـــهُ، وفِي تَـــرَحٍ ... وعُمْقُ بَحْرِ المَنَـــــايَا سَوْفَ يَعْبُرُهُ
لا تَغْـــتَرِرْ، بَمَنَامَـــاتٍ، مُزَخْرَفَـــةٍ ... كَـانَ المَنَـــــامُ، بِمَـنْ فِيـهِ يُـزَوِّرُهُ
إنِّي رَأيْـتُ قُـرًى كَـــانَتْ مُحَصَّـنَةً ... دَهْـــرًا، مُنَعَّمَـةً، والخُلْـدَ تُضْمِـــرُهُ
هَـذِي مَعَاهِـدُهَا، صَرْعَـى أمَاجِـدُها ... أمْسَـتْ مُكَسَّـــرَةً، لا كَـــسْرَ تَجْبُـــرُهُ
مِنْ بعْدِما قـدْ بَنَـوْا، بُنْيَـانَهُمْ وحَـوَوْا ... مُلْكًـا عَظِـيمًا فَنَـوْا، والـوَعْظُ أكْـبَرُهُ
مَا قدْ ذَكَرْتُ لكُمْ-قَوْمِيَّ- فـاعْتَبِرُوا ... وَلْيَعْتَـبِرْ مَـنْ بَنَـى مَـا رَاقَ مَنْظَـرُهُ.

ز- مُقاوَمَة الدَّجَل: دفاع الابتداع

هنا نلمح موقف **عبد القادر (آدب)** بن سيد الأمين، خلال ديباجة رسالته **إلى** شيخه **الشيخ سيديَّ**، حين يقول:

(**هذا**، وإنَّه **إلى الغَوْث الكامل**، وبحْرِ العلم والحكمة الشامل، **مَنْ شيَّدَ بناءَ الدين** بعْدَ هَدِّ أيْدي **البِدَعِ لِبنَائِه**، وأضاءَ **شُموسَ العِلْم** بعْدَ انطباق **ظُلمات الجهْل** على ضيائه)[1].

لقد كان موْقفُ **"سيدِيَّ ولد آدبَّ"** صارمًا، تُجَاهَ **دَجَاجِلَةِ عصْرِه**، سواء ممن تسلَّلُوا إلى هذا المَجَال، من **الفُقَهَاءِ والصُّوفِيّينَ** معًا، حيث **نحَتَ لهُمَا اسمين** من اختصاصهما، يوحيان في بنيتهما الصرفية بالتكلف والدعوى، فهؤلاء **"مُتَفَقِّهَة"**، وهؤلاء **"مُتَصَوِّفَة"**، فكلاهما - في نظره- **"مُتَفَعِّلٌ"**، وليس مُنْفعلا، بمجال معارفه، وضمن ذلك يكمن الفرق، بين الحق، والباطل، هنا، وهناك، وهو لا ينخدع بأي من الصنفيْن، ولا يوقِّرُ أيا منهما، ولا يريد لشقيقه: **محمد لْحوار**-ولا لغيره- أن ينخدع، **بثياب الضأن**، فوق **قلوب الذئاب**، حين يقتبس لهم هذا الوصف القديم، قائلا:

«وإنما جلبتُ لك ما جلبتُ في **مُتَفَقِّهَة** الزمن، دون **مُتَصَوِّفَتِه**، حرْصا على مُطابَقَة مَكْتُوبك ومُوَافقَتِه، مع أنّي أفْرَدْتُ فيهمْ تأليفا دعوته: **"فتح الجليل في الرد على الدجاجيل"**؛ فليطالعه من أراد الفرْق بين **أرْباب الدعوى، ومشايخ الحق** أهل التقوى.

وقد جمحَ بنا جوادُ الفِكْر في هذا الميدان، حرصا على بيان شُبَهِ أهْل الزمان؛ لئلا يغتر بشعْوَذَتِهم الجاهل، ويتيه في غرور بهْرَجَتِهم الغافل، إذ لا ينال التابع إلا حظ المتبوع، ولا يتصور من هؤلاء منتفع ولا منفوع، كيف وهم المنعوتون -هم وأتباعهم- بقوله صلى الله عليه وسلم: **"يخرج** في آخر الزمان **رجالٌ يختلون الدنْيا**

[1] - هارون: مصدر سابق، ص 96.

بالدين، يلبَسونَ **جلودَ الضأن** من اللين، **ألْسِنَتُهمْ** أحْلى من **العسَل**، و**قُلُوبُهم** أمَرُّ من **الحنْظل**».

وتأسيسا على هذا تَصَدَّى لكل **"أرْبابِ الدَّعْوَى"**، في زمنه، فكتب قصيدة في أحد مُدَّعِي **"المهْدوية"**؛ فقال من الطويل:

لقد أكْحَلَ الأجْفانَ، مِنِّيَ، بالسُّهْدِ ... وَهَيَّجَ أحْزانِي، وأعْدَمَنِي برْدِي
وتيَّمَ قلْبي، عِنْدمَا شاعَ هوْلُه ... ضَلَالُ مُضِلٍّ، يَدَّعِي أنَّهُ المَهْدِي
يُزَخْرِفُ، زُورًا، منْ أبَاطيلِ قَوْلِه ... يَغُرُّ بِه سُفْلَ الحَمَاقَى، ذَوِي الجَحْدِ
ويُظْهِرُ خيْرًا للوَرَى، وهْوَ مُضْمِرٌ ... شُرُورًا، عِظَامًا، والإلهُ لَهَا مُبْدِي
فيا أيُّها النَّاسُ، انْظُرُوا، قدْ دُهِيتُمُ ... بِداهِيةٍ، عُظْمَى، بَوَائِقُها، تُبْدِي
أتَاكمْ، مُضِلٌّ، بالغِوَايَةِ، غَالَكمْ ... إذَا لمْ تَرُدُّوا بَغْيَه، أشْنَعَ الرَّدِّ
ذلِيلٌ، قلِيلٌ، أشْعَلَ النَّارَ، فِتْنَةً ... فيَالَكِ، مِنْ نَارٍ، وُقِدْتِ، بِلا زَنْدِ
يقولُ: أنَا المَهْدِيُّ، جَهْلًا، بوصْفِه ... فهَلَّا نظَرْتُمْ فِي "صَوَارِمَةِ المَهْدِي"[1]
لغوْثِ الوَرَى مُبْدِي الحَقائِقِ سَيِّدِي ... مُحَمَّدٍ المُعْلِي سَنَامَ ذُرَى المَجْدِ

[1] – يحيل على كتاب للشيخ سيد محمد بن الشيخ سيدي المختار الكنتي.

تاسعـــا

الخاتـمـة

إن هذه العجالة مُجَرَّدُ ترتيب لبقايا جذاذاتٍ متآكلة من المخطوطات، واستحضار لروايات محلية، بقيت بعضُ ظِلالها عالقة بالذاكرة، مع أنها قد تجْنَح للأسْطَرة التأريخية أحيانا، وللمنْزَع المَناقبي، وللسرديات الكراماتية أطوارا، وللقصص الملحمي القبلي، في حروب **"الفِجَار"** بين الأهالي بـ **"بلاد السيبة"** تارات، مما أرغمني -في بعض الأوقات- على أنْ أتكلم بلغة ليست لغتي، وأقدم رؤية لا تمثل **"تأويل رؤياي"**، ولا **"بصمة روحي"**[1].

ورغـم ذلـك حاولـت تنسـيق ذلـك الشـتات وفـق أطروحـة **"المقاومـة الأخلاقية"**، متلّمَّسَة عبر **"أدبيـات أهـل آدب"**، مصـحوبة بـبعض اسـتنتاجات شخصية، لا تنبثقُ من أيِّ دراساتٍ سابقة علْمية تحيل عليْها.

وأظن أنه قد استبان من خلال هذه العاجلة أن هناك علاقة بين الاسم والمسمى، بين اسم **أهل آدب**، **والأدب**، ببعديه: **أدب** الدرس، و**أدب** النفس، إضافة إلى ربط الصلة أيضا بـالكرم في **"مآدب"** الأشباح، والأرواح؛ حيث حاولنا تأصيل البعد الروحي التربوي، الذي تكتنزه **"المقاومة الأخلاقية"**، في مفهومي: **التكنْتي**، و**التفَتِّي**، وفي تموقع أهل هذه **"المقاومة الأخلاقية"**، في منطقة

[1]- أدي ولد آدب: **"تأويل رؤياي- أطروحات صغيرة في الأدب والثقافة"**، ط 1، 2019، مؤسسة آفاق للدراسات والنشر والاتصال، مراكش المغرب. وديوان: **"بصمة روحي"**، ط1، 2018، مؤسسة آفاق للدراسات والنشر والاتصال، مراكش المغرب.

جذب، تعتبر **"مجمع البحرين"**، و**ملتقى** روافد إمدادات **الحضرتين**؛ حضرة **أهل الشيخ سيدي المختار** الكنتي، في الشرق، وحضرة **أهل الشيخ سيدي**، في الغرب، مُتَلَمِّسِينَ تجليات هاتيك **"المقاومة الأخلاقية"**، عبر مجاهدة **النفس**، و**الشيطان**، و**الأهواء**، ومغريات **زهرة الحياة الدنيا**، دار الغرور، وعبر محاربة **الجهل**، و**الجبن** و**البخل**، نقلا للمعركة، وميدانها، وأسلحتها، من البعد الخارجي الموضوعي، إلى البعد الداخلي الذاتي؛ **تخلية** من الرذائل، و**تحلية** بالفضائل، **كل ذلك** متناولا من خلال **البعد الأدبي**، في مظهره الأسلوبي الإبداعي، استنطاقا **لنصوص** شعر القوم، و**فصوص** نثرهم الراقي، لتشهد **القصيدة والرسالة** معا، وحتى **الفتوى**، و**الحكم القضائي**... **"مستفيضة"**، أنه "كان هناك عائلة تسمى **أهل آدب**، لا ينبغي أن **تختزل في الشعر** فقط، ولا في **المحكيات** الشعبية المناقبية الكراماتية، ولا في **الصورة النمطية** المأثورة عن كرمهم، بل **هناك** بقايا **نصوص** شعرية، وفصوص نثرية، **تقدم سردية أوثق**، وأعمق، **شاهدة** أن هناك **شعراء**، غير المبدع الأشهر: **محمد بن آدب**، وهناك، **نُثَرَاء**، وأنه بقدر ما كان هناك **فتيان** يعشقون **الجمال** ويتغنون به، ويبدعون في تصوير **الفتوة**، و**الفروسية**، فـ "إِنَّ فِي القَوْمِ أَشْيَاخًا يُرَبُّونا"[1]، كما قال الشيخ سيدي محمد بن الشيخ سيدي.

وخلاصة الخلاصة أنني **أزعم** أن من **مر** بهذه **العجالة**، **سيقول**- كما قال متأخرو **"يأجوج ومأجوج"** حين مَرُّوا بالبحر، وقد شربه متقدموهم-: **"كان الماء هنا"**.

وحين **يصل** إلى **نقطة النهاية** هذه: **سيتمتم** أيضا:

أخطأ من راهن على أن القوم ابتلعتهم دوامة النسيان، كلا، ماتت شخوصهم، وبقيت نصوصهم.

---

[1]- اقتباس لشطر بيت له؛ تمامه، حين يخاطب العشاق الواقفين بالأطلال:

وإن صدئتمْ برين الذنب أفئدة فإن في القوم أشياخا يربونا

وأنا أقول أخيرا: ما لم يدركني الموت – أطال الله بقائي– سأتدارك المزيد..

من كان أباك كن ابنه...

من لم يلِدْ آباءَه وأجْدَادَه.. كَمَا ولدُوه.. ويبعثهم من مَراقِدِهِم في جنَّات الخلد.. إلى معارج الخلود الدنيوي، فهو لم يُولَدْ أصْلا..

"إن الحروفَ "تعِيش" حين تقالُ"[1].

[1]– تحريف مقصود لشعر نزار قباني عن مواضعه.

المؤلف في سطور

أدي ولد آدب -شاعر- وباحث موريتاني (دكتوراه في اللغة العربية والأدب).
له حوالي عشر مجموعات شعرية، نشرت منها وزارة الثقافة الجزائرية 2009م، ديواني:

1- **رحلة بين الحاء والباء.**

2- **تأبط أوراقا.**

3- **بصمة روحي**، مؤسسة آفاق، مراكش، ط1، 2018.

ونشرت له بحوث ومقالات، كما نشرت له كتب:

1-**"الإيقاع في المقامات اللزومية للسرقسطي"**، نشرته دائرة الثقافة والإعلام في الشارقة، 2006م.

2-**"المفاضلات في الأدب الأندلسي/ الذهنية والأنساق"**، نشر 2015 من قبل المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات بالدوحة.

3- **تأويل رؤياي: أطروحات صغيرة في الأدب والثقافة**، مؤسسة آفاق، مراكش، ط 1، 2019م، (يضم حوالي 150 مقالا).

وأخيرا سلسلة: **"أدبيات أهل آدب"**:

1- **أهل آدب: سلالة الشعر وبيت القصيد**، مؤسسة آفاق، مراكش، ط1، 2020.

2- **المقاومة الأخلاقية في أدبيات أهل آدب**، مؤسسة آفاق، مراكش، ط1، 2020.

3- **سيدي ولد آدب: رمز الفتى الكنتي، فارس المدفع والقلم**، مؤسسة آفاق، مراكش، ط1، 2020.

4- **الشيخ أحمد بن آدب: شيخ المشايخ وقطب الشعراء**، مؤسسة آفاق، مراكش، ط1، 2020.

5- **خديجة "دَيَّه" بنت سيدي بن آدب: خنساء شنقيط**، مؤسسة آفاق، مراكش، ط 1، 2020.

وفي الأفق سلاسل أخرى، إن شاء الله.

مؤسسة آفاق للدراسات والنشر والاتصال
4/ 483 الوحدة الرابعة، الداوديات - مراكش – المغرب – 59 73 30 24 05